من نجوم الإسلام
(١٧)

سليمان الحلبي

العقاب الكاسر

تأليف

عبد الله الطنطاوي

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص. ب: ٤٥٢٣ - هاتف: ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص. ب: ١١٣/٦٥٠١ - هاتف: ٣١٦٠٩٢

تطلب جميع منشوراتنا في المملكة العربية السعودية
من دار البشير بجدة
جدة: ٢١٤٦٣ - ص.ب: ٢٨٩٥ - هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ - ٦٦٥٧٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

حدَّثَنا الفتى صادق أمين قال:

ــ كنّا طلّاباً في ثانوية (سليمان الحلبي) الكائنة في حي (سليمان الحلبي) في مدينة حلب الشهباء. .

وكان معي زميلان صديقان هما: خالد وسليمان، وكانا شابّين في مَيْعة الصِّبا، تملأ قلبيهما وعقليهما أحلامٌ ورديّة بعودة الأمجاد العربية التي حقّقها أجدادنا الأماجد العظام.

جلسنا، ذات يوم، تحت إحدى الأشجار المزهرة في حديقة (سليمان الحلبيّ) وانطلقت بنا الذكريات إلى أيام العزّ والكرامة والمجد، وطافت بأخيلتنا أيام العرب في الجاهلية والإسلام، فذكرنا عنترة بن شدّاد، والزير، وخالد بن الوليد، وأبا عبيدة بن الجراح، والقعقاع، وصلاح الدين، وسيف الدين قطز، والظاهر بيبرس، وسواهم من أبطالنا الميامين.

وفيما نحن على هذه الحال، مرَّ بنا مدرّس التاريخ الأستاذ ماجد، فقمنا نرحّب به، فردّ الأستاذ على التحيّة بأحسن منها، ثم سألنا ممازحاً:

ــ بأيِّ حديثٍ كنتم تخوضون؟

فابتسمنا، وقال خالد:

ــ كنّا نتحدث عن بعض عظماء أمتنا.

فسأل الأستاذ:

ــ مثل مَنْ مثلاً؟

أجاب خالد:

ـ كنّا نتحدث عن بطولات عنترة والزير وخالد والقعقاع وغيرهم.

قال الأستاذ:

ـ أرجو، يا خالد، أن تكون كالبطل العظيم خالد بن الوليد رضي الله عنه، ثم التفت إلى سليمان وقال:

ـ وأرجو، يا سليمان، أن تكون مثْلَ سميِّك: سليمان الحلبيّ، فهو مجاهد بطل، قطع الفيافي والقفار، وركب البحار، من أجل تحقيق هدف نبيل عظيم، أدخله التاريخ العربيَّ الإسلاميَّ من بابه العريض.. من باب الجهاد في سبيل الله، الذي لا يقيم وزناً للحدود والسُّدود.

دُهِشَ خالدٌ وسليمانُ لسماعِ اسمِ سليمانَ الحلبيِّ، فما كان يَخْطُرُ لهما ببالٍ، أنَّ الحيَّ الذي وُلِدا وعاشا فيه هو على اسمِ بطلٍ لا يعْرفانِه ولم يسمعا باسمِه، معَ أنَّهما في الصفِ العاشرِ.

تَشَجَّعَ سليمانُ وقال:

ـ عفواً أستاذ.

قال الأستاذُ:

ـ تَفَضَّلْ يا بُنَيّ، ماذا تريدُ أنْ تقولَ؟

قال سليمانُ:

ـ أنا لم أسمعْ ببطلٍ من أجدادنا اسمُه سليمانُ الحلبيُّ.

وقال خالدُ:

ـ وأنا كذلك يا سيِّدي لم أسمْع به، معَ أننا نسكُنُ في حيِّ سليمانَ الحلبي. فهل لك أنْ تستريحَ إلى جانبنا وتُحَدِّثَنا عنه؟

قال الأستاذ ماجد:

ـ لا بأسَ.. فلَدَيَّ مُتَّسَعٌ من الوقتِ أستطيعُ فيه أنْ أحدِّثَكم عنه..

قال سليمانُ:

ـ تَفَضَّلْ يا أستاذ، فكلُّنا آذانٌ صاغيةٌ.

قال الأستاذ ماجد، بعد أن اتّخَذَ هَيْئةً جادّةً مُهْتَمَّةً:

ـ سليمانُ الحلبـيُّ يا أبنائي هو أحدُ أبناء حلبَ الشَّهْباءِ، وُلِدَ فيها عام ١٧٧٧م.

قال خالدٌ:

ـ إذنْ كان يعيشُ في العصرِ الحديث، ولم يكن معَ القعقاعِ وخالدٍ.

قال الأستاذُ:

ـ أجَلْ يا خالدُ، وكان أبوه مُحَمَّدُ أمين الحلبـيُّ من أفاضلِ أبناءِ حلبَ، كان رجلاً صالحاً تقيّاً، وله أولادٌ رَبَّاهم تربيةً حسنةً، واعتنى بشكل خاصّ بابنه سليمانَ، لِمَا رأى فيه من مَخَايِلِ الذَّكاء والنُّبُوغ..

سأل خالد:

ـ وهل تَعَلَّمَ في حلب؟

وسألَ سليمانُ:

ـ وهل كان في حلبَ مدارسُ وجامعاتٌ، كما هي الحالُ الآنَ يا أستاذ؟

أجاب الأستاذُ ماجدٌ:

ـ أجلْ يا أولادي.. كان في حلبَ بعضُ المدارسِ، وكانتِ المساجدُ بمَثَابَةِ مدارسِ اليومِ، يَتَلَقَّى فيها التلاميذُ علومَ العربيةِ والدينِ والرياضياتِ والفَلَكِ والمَنْطِقِ والفلسفةِ وسِواها من العلومِ، وكان سليمانُ الحلبـيُّ واحداً من التلاميذِ

النُّجَباءِ، تَلقَّى علومَه الأوّليّةَ على أيدي مشاهيرِ المشايخِ بحلبَ، وقد نَصَحَ بعضُ مشايخِه أباه بأنْ يُكْمِلَ له تعليمَه، ويُرْسِلَه إلى الجامعِ الأزهرِ الشريفِ في القاهرة.

سألَ خالدٌ في اهتمام:

ــ ولماذا الجامعُ الأزهرُ يا أستاذُ؟

أوَليسَ الجامعُ الأزهرُ كسائرِ الجوامعِ والمساجدِ في حلبَ ودمشقَ وحماةَ مثلاً؟

أجاب الأستاذُ ماجدٌ:

ــ لا يا خالدُ.. الجامعُ الأزهرُ كان مُنْذُ نَشْأتِه وحتى يومِنا هذا بمثابةِ جامعة.. بل إنه جامعةٌ حقيقيةٌ، ويُدَرِّسُ فيه كِبارُ علماءِ الدينِ، ويأتيه الطَّلَبَةُ من كلِّ مكانٍ من الوطنِ العربيِّ والعالَمِ الإسلاميِّ. وفيه رُوَاقٌ خاصٌّ بالسوريين، اسمُه رُوَاقُ الشوام. وفيه نَزَلَ سليمانُ الحلبيّ.

سألَ سليمانُ:

ــ متى بُنِيَ الجامعُ الأزهرُ يا أستاذ؟

قال الأستاذُ ماجدٌ:

ــ بناه القائدُ جَوْهَرُ الصِّقِلِّيّ بَعْدَ أنْ بَنَى مدينةَ القاهرةِ سنةَ **٣٥٩** هجرية.

ــ يعني مُنْذُ أكثرَ من ألفِ سنةٍ.

سألَ خالدٌ:

.. وهل كانتِ المواصلاتُ مُؤَمَّنَةً كما هي عندَنا اليومَ، حتى يذهبَ سليمانُ إلى القاهرةِ ويَدْرُسَ في الجامعِ الأزهر؟

أجاب الأستاذُ:

ــ لم تكنِ المواصلاتُ يومَذاك سهلةً كما هي في أيامِنا.. لم تكن هناك طائراتٌ ولا سياراتٌ أو قِطارات، ولكنْ كانت هناك بَواخرُ تَمْخرُ البحرَ، وهي

بَواخرُ بطيئةٌ، ولم تكن مُتَطوِّرة وجيِّدة كالتي يركبُها الناسُ في أيامنا. . غير أنّ المواطن العربـيّ والمسلم في ذلك الزمن، كان يستطيع السفر والتنقّل بين أرجاء وطنه الكبير، دون أيِّ عقبات، فلا حدود ولا جوازات سفر، ولا ذلّ ولا إهانة في الوقوف الطويل في صفوف وطوابير أمام شبابيك موظفي الجوازات، عند كلّ نقطة حدود، لأن وطننا الكبير لم يكن مجزّءاً إلى أقطار ودول.

قلت: إذن عانى الشابّ سليمان الحلبـي كثيراً من المتاعب في سفره الطويل من حلب إلى القاهرة!

فابتسم الأستاذ وقال:

ـ يجب أن تعلم يا صادق ويا خالد ويا سليمان، أنّه في سبيل طلب العلم، تهون الصّعاب، خصوصاً إذا كان طالب العلم شاباً ذكياً مجدّاً كسليمان الحلبـي الذي تعلّم واعتقد أنّ طلب العلم فريضة على كلّ مسلم، بأمرٍ من رسولنا العظيم محمد.

الجميع: صلَّى الله عليه وسلَّم.

الأستاذ: وكما جاء في الأثر: اطلبوا العلم ولو في الصين، واطلبوا العلم من المهد إلى اللحد. . وعلى هذا كان طلاب العلم يستهينون بالصّعاب، ولا يأبهون بما يلقَوْنَ من أهوال في سبيل العلم.

صادق: نعمْ يا أستاذ، نحن في انتظار المزيد من المعلومات عن سليمان الحلبـي.

الأستاذ: انتسب سليمان الحلبـي إلى الأزهر الشريف، ومكث فيه ثلاث سنوات يغرف من علوم الدين والدنيا الشيء الكثير، حتى غدا مبرّزاً بين زملائه، فنال إعجاب أساتذته من مشايخ الأزهر الذين كانوا يلقّبونه بالشيخ الحلبـيّ.

وتابعَ الأستاذُ ماجدٌ حديثَه قائلاً:

ـ وعلى أيدي أولئك العلماءِ الأَعلامِ تلقَّى سليمانُ الحلبيُّ دروساً مُهِمَّةً في الجهاد والتربية عليه، وفي الأمر بالمعروف والنَّهْي عن المُنْكَر، وفي مقاومة الكفّار الذين يَعْتدون على بلادنا وعلى أمّتنا وديننا . .

سأل سليمانُ في اهتمام:

ـ وهل كان في ذلك الوقت استعمارٌ يا أستاذ؟

أجاب الأستاذ ماجد:

ـ أجلْ يا سليمانُ، فقد كان الفرنسيون قد احتلُّوا مِصْرَ في الثاني من تموز عامَ ١٧٩٨م بقيادة نابليون بونابرت، وحاولوا استعمارها، وإذلال شعبها، ونهب خيراتها، ومَسْخَ عاداتها وتقاليدها، وتشويهَ شخصيّتها، وبَعْثَ تاريخها الفرعوني، ليستبدلوه بتاريخها العربيّ الإسلامي، تمهيداً لحرفها عن عروبتها وإسلامها، ولهذا جاء نابليون بعدد من علماء الآثار، وبمطبعته، وبمسرحه، وبغانياته، لتلحق مصر بركب المدنيّة الغربية، وتتناءى عن الحضارة الإسلامية.. يعني.. جاء الفرنسيون يغزون الشخصيّة العربية المسلمة في مصر، وجعل نابليون، قائدُ الحملة الفرنسيّة على مصر، من هذا هدفاً له، يقاتل دونه، ويبذل دماء ضباطه وجنوده، وشرفه وشرفَ الثورةِ الفرنسيّة وكلَّ القيم الأخلاقية في سبيل تحقيقه.

صادق: وهل نجح في مسعاه هذا؟

الأستاذ: بل فشل وخسر ولم يتمكن من غزو القلوب والعقول المسلمة، وعندما رحل عن مصر، كان قد خسر ثلثي الجنود الذين غزا بهم مصر.

صادق: هل صحيح أنّ نابليون جاء ليحرر الشعب المصري من حكم العثمانيين والمماليك أستاذ؟

الأستاذ: نابليون كذاب ومخادع فيما ادّعاه من حبّ مصر، وأنه جاء لتخليص المصريين من حكم المماليك وجورهم واستبدادهم، بدليل أنه تعامل

معهم وتعاون مع أحد أمرائهم المدعو مراد بك ضدّ المصريين والعثمانيين معاً. . نابليون أراد التخلص من المماليك أولاً، وحاول زَرْعَ الشقاق والكره في نفوس المصريين ضدّهم، مع أنه كان يعلم أن المصريين كانوا يكرهون المماليك الطغاة المتجبّرين الذين استعلوا على الشعب الذي رضي بهم أمراء وحكاماً، وهم الذين كانوا عبيداً يباعون في سوق العبيد، سوق النِّخاسة. . أراد نابليون تأريث الأحقاد، وإضرام نيرانها في قلوب المصريين ضدّ المماليك، وفي قلوب المماليك ضدّ المصريين والعثمانيين، وفي قلوب العثمانيين ضدَّ المصريّين والمماليك معاً، على المبدأ الاستعماريّ الملعون: «فرِّقْ تَسُدْ».

صادق: قرأتُ وسمعتُ أنّ نابليون كان ضدَّ النصرانية والنّصارى، وأنه كان معجباً بالإسلام ونبـيّ الإسلام عليه السلام.

الأستاذ: عليه الصلاة والسلام. .

نابليون ــ يا أبنائي النجباء ــ حاول دغدغة المشاعر الدينية، لما كان يعرف لها من مكانة عميقة في نفوس المسلمين عامّة، والمصريين خاصّة، بعد أن دغدغها عندما أراد العودة بذاكرتهم إلى أمجادهم القديمة، أيام الفراعنة، وقام يحتفل بذكرى المولد النبويّ الشريف، وبمولد سيّدنا الحسين بن عليّ رضي الله عنهما، وبوفاء النيل، ولكنه فشل في كلّ الحالات. . أراد نابليون أن يقطع المصريون صلتهم بالعرب والمسلمين، ويربطوها بالفراعنة، فأخفق وخسر وخاب، وهو في سائر أحواله، كان يعمل على تشويه تاريخ مصر، وسرقة تاريخ مصر، بسرقة كتبها وتماثيلها وآثارها، فهو لصّ أفكار، ولصّ آثار.

وأمّا أنّه عدوٌّ للنصارى والنصرانيّة، فأنا لا أستغرب هذا على ربيب الثورة الفرنسية الماسونيّة اليهوديّة التي شحنت نفوس أبنائها بالعداوة للنصرانية والإسلام معاً، من أجل اليهود الذين كانوا منبوذين من المجتمع الفرنسيّ، كما هم منبوذون من سائر المجتمعات الأوروبية.

صادق: ولهذا كان دعاؤه للجامع الأزهر وللمشايخ يا سيِّدي؟

الأستاذ: أجل يا صادق: ففي شهر تشرين الأول سنة ١٧٩٨ وبأمرٍ من نابليون بونابرت نفسه، أعمل الفرنسيون سيوفَهم في طلبته وشيوخه، ونهبوا الكتب، ومزّقوا مخطوطات عمرها قرون، ونهب اليهود بعضها.. هل سمعتم ما قلت؟ نهب اليهود بعض المخطوطات الثمينة من الأزهر، لأنّ اليهود كانوا في خدمة الاحتلال الفرنسيّ، ثم اتخذ الجنود الفرنسيون من الأزهر إسطبلاً لخيولهم، وظلّت الخيول فيه، حتى تشفّع الشيخ الجوهري الذي لم يقابل في حياته حاكماً قط، عادلاً كان أو ظالماً.. توجَّهَ هذا الشيخ الجليل إلى نابليون، وطلب منه الأمر بإخراج خيوله من الأزهر الشريف.

خالد: وهل استجاب نابليون لطلبه أستاذ؟

الأستاذ: أجلْ يا خالد.. فقد أدرك نابليون خطورة احتلاله المهين للأزهر، وعُمْقَ تأثيره على المصريّين، فأمر بالجلاء عنه، كما أمر بإلقاء القبض على عدد من مشايخه، وقطع رؤوسهم في سجون القلعة.

سليمان: لكنْ.. لماذا الأزهر بالذات يا أستاذ؟

الأستاذ: لأنّ الأزهر ـــ يا سليمان ـــ كان رمز الإسلام، ورمز سيادة الأمة، ومركز قيادتها.

سليمان: كيف؟

الأستاذ: ما إن سقطت دولة المماليك في معركة (إمبابة) حتى كان الأزهر والغزاة الفرنسيّون وجهاً لوجه، وقد قاد الأزهر مقاومة الأمة على جميع المستويات، من المقاومة السلبية التي قادها المشايخ الكبار داخل مجالس نابليون، وداخل التشكيلات الإدارية التي أقامها لحكم البلاد، إلى المقاومة الشعبية العنيفة التي قادها الشيوخ الصغار، بتنظيم حركات سرّيّة قامت بأعمال المقاومة الوطنية التي وصلت ذروتها بتنفيذ أهمّ ثورتين عرفهما الشرق في ذلك الوقت، إلى عمليات

الاغتيال التي نفذها بنجاح، طلاب الأزهر، المجاورون.. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، أراد الفرنسيون تصفية القيادة الفكرية للأمة، والمتمثلة في الأزهر، بتغريب المجتمع من حوله، بعد التنكيل بشيوخه وطلابه، حتى يقطعوا جذوره، باجتثاثها من منابتها الأصلية.. من المساجد عامّة، ومن الجامع الأزهر على وجه الخصوص. وإذا لم يتمكنوا من اجتثاثها، يتركونها تذوي، ليبدو الأزهر نشازاً متخلّفاً؛ ويكون هو وعلماؤه وتلاميذه، مثار السخرية والتندّر.

صادق: ما رأيكم يا سيّدي، لو تدرّجْتَ بنا منذ مجيء الحملة الفرنسية إلى الإسكندرية؟

الأستاذ: ليس لديّ مانع، ولكنّ الأمر يطول.

سليمان: وهذا ينسينا حديثكم عن البطل سليمان الحلبي.. يعني فيه خروج عن الموضوع.

الأستاذ: لا يا سليمان.. حديثنا هذا في صلب الموضوع، وليس خروجاً عن الموضوع، كما يقول لكم مدرِّس الإنشاء والتعبير.

صادق: إذن.. سمِّ الله وابدأ يا سيّدي.

الأستاذ: جاء الفرنسيون بأسطولهم وحاصروا الإسكندرية في الثاني من تموز سنة ١٧٩٨م وانتشرت مراكبهم التي تحمل جنودهم حول الإسكندرية بآلات حربهم. حاول أهل الإسكندرية ومن انضمّ إليهم من العربان ــ حاولوا الدفاع عن المدينة بما أوتوا من سلاح متخلّف، ومن قوة، ولكنهم لم يثبتوا، بل انهزموا وتراجعوا إلى المدينة يدافعون عن أنفسهم وأهليهم، ولكن بلا جدوى.. فلما أعياهم الحال، وعلموا أنهم مأخوذون لا محالة، وليس عندهم للقتال استعداد، لخلوّ الأبراج من آلات الحرب والبارود، ولكثرة العدو الغازي، طلبوا الأمان من الفرنسيين، وتوقّفوا عن مقاتلتهم، فتوقّف الفرنسيون عن القتال، وأمّنوهم، وأنزلوهم من حصونهم، ونادى الفرنسيون بالأمان لأهل المدينة، وطلب نابليون

أعيان المدينة ووجهاءها، فحضروا بين يديه، فألزمهم بجمع السلاح وإحضاره إليه، وأن يضعوا (الجوكار) في صدورهم.

خالد: عفواً أستاذ.. ما معنى الجوكار؟

الأستاذ: هو ثلاث قطع من جوخ، يرمز إلى الفرنسيين وتسلُّطهم.

صادق: نعمْ أستاذ.

الأستاذ: وبعد أن دانت له الإسكندرية، توجَّه نحو القاهرة.

سليمان: والمماليك؟ ودولة المماليك؟ أين كانوا؟ ما دورهم؟

خالد: أنا أكرههم.. أكره المماليك ودولتهم.. وأكره من يدافع عنهم.

الأستاذ: على مهلك يا بنيّ.. تكلّمْ بهدوء..

خالد (منفعلاً): بهدوء والدماء تسيل، والبيوت تتهدم؟ ماذا كانوا يفعلون قبل مجيء الفرنسيين؟ لماذا لم يكن في الأبراج سلاح وبارود؟ حتماً كانوا مشغولين بقتل الشعب، وبنهب ثرواته، واختطاف بناته.

الأستاذ: وبعدها يا خالد؟

صادق: دعني أردّ عليه يا سيّدي.

الأستاذ: ولكنّ.. بلا انفعال.. بهدوء ومنطق.. بعقل وموضوعيّة.

صادق: سأكون عند حسن ظنّك يا أستاذ بعون الله..

اسمع يا صديقي العزيز يا خالد..

أنا أوافقك على كثير مما وصفتَ به المماليك، ولكن..

خالد: دعْنا من (لكنْ) يا صادق.. فهي سبب كلِّ بلاء وخلاف.

الأستاذ: دعه يتكلم يا خالد.

صادق: لكنْ لا تنسى يا خالد، أن المماليك كانوا أكبر قوة إسلاميّة مقاتلة بعد قوّة الدولة العثمانية، ولهذا عمل نابليون للقضاء عليهم، لإضعاف المسلمين، ثمّ لا ينبغي لنا أن ننسى أنّهم، وبفضل سيوفهم البتّارة، وشجاعتهم النادرة، استطاعوا المحافظة على عروبة المشرق العربـي وعلى هُوِيّته الإسلامية، ولولاهم لاحتلّ (لويس التاسع) مصر، ولاستقرَّ الصليبيّون في الشام، ولكُنّا اليوم شيئاً شبيهاً بشعوب أمريكا اللاتينيّة أو أقلَّ منهم.. لقد كان المماليك الصّخرة التي تَحطّم عليها الإعصار المغوليُّ، فهمْ وحدهم الذين ردّوه على أعقابه، ولو انتصر المغول على المماليك في (عين جالوت) لوصلوا إلى البحر الأبيض المتوسط، ودمّروا كلَّ ما يصادفهم من مدن وقرى ومزارع وحضارة.. ولكنّ ــ مرة أخرى ــ كانت لهم أخطاؤهم التي أهلكتْهم في مصر، وهزمتهم أمام جيش فرنسا.

سليمان: هل كانوا مصريّين؟

الأستاذ: بل كانوا من جنسيّات مختلفة، وكانوا مسلمين، ويدافعون عن الإسلام والمسلمين. حكموا مصر خمسة قرون، وكان يحكم مصرَ قُبَيْلَ حملة الفرنسيين على مصر، أسوأُ مملوكين حاكمين في تاريخ المماليك.

خالد: ولكنّ تاريخهم ذو طابع متوحّش، وكانوا جميعاً ينتظرون النهاية الدمويّة لسائر الأمراء المماليك، وكانت الفوضى تحكمهم، وكانوا يعتقدون أن السلطة حقٌّ مطلق لهم، ولهم وحدهم حقُّ نهب البلاد والعباد.

صادق: هل نعود إلى نابليون يا سيِّدي؟

الأستاذ: نعود بإذن الله.

سليمان: عفواً أستاذ.. نريد معرفة شيء عن الشعب المصري.. هل قاوم الغزاة؟

الأستاذ: الشعب المصريّ قاوم الغزاة الفرنسيين بضراوة واستبسال، مع أنه كان شعباً جاهلاً أعزل.

خالد: بفعل المماليك.

الأستاذ: وكان المستعمرون الفرنسيون يملكون أحدث الأسلحة في ذلك الزمن، ولديهم من الأعتدة والذخائر الشيءُ الكثير، أمّا المماليك.. فلا..

خالد: ولذلك نستطيع أن نقول: إن الجيش الفرنسيّ هزم المماليك، ولم يهزم الشعب المصريّ.

الأستاذ: هذا صحيح يا خالد.. فقد قامت الثورات في طول البلاد المصريّة وعرضها، في المدن والأرياف، حتى كنتَ ترى الفلاحين يسنّون فؤوسهم بالمبرد، وعلى دولاب الحجر، ليحاربوا بها وبما لديهم من عصيّ وحجارة وسكاكينَ وخناجرَ، أعداءَ اللّهِ والشعب والوطن والدّين.

خالد: كلُّ ذلك بسبب حكم المماليك الذين منعوا السلاح عن الشعب، فلا هم دافعوا، ولا هم عبّأوا الشعب للدفاع عن نفسه.

الأستاذ: وكانت أول ثورة شعبيّة في الوجه البحريّ في أيلول وتشرين الأول من تلك السنة (١٧٩٨) وقد أخمدها الفرنسيون بوحشيّة دونها وحشيةُ المماليك يا خالد، وقبضوا على الشيخ سليمان الشواربـي ـــ شيخ الناصية ـــ وأعدموه بقطع رأسه.

خالد: وحوش.. همج.

الأستاذ: بقي نابليون السفّاح المغرور في القاهرة سبعة أشهر، يخرّب ويدمّر ويفعل الأفاعيل، وقد ثارت القاهرة ثورة عارمة ضدّ نابليون، وكان المشايخ الصّغار يقودون الجماهير المقاتلة، وكان المؤذّنون يؤذّنون وينادون بالجهاد: حيّ على الجهاد.. حيّ على الجهاد.. حيّ على قتال الغزاة. حيّ على الاستشهاد.

خالد: والشيوخ الكبار؟

الأستاذ: كانوا يتستّرون على الحركة، ويكتمون أخبارها عن نابليون

وزبانيته، ويسعَوْنَ في الهدنة إذا ظهر لَهم تراجعُ المجاهدين وضعفُهم، حتى لا تتحول الثورة إلى مذبحة.

صادق: وصفْتَ نابليون بالسفّاح، فهل تذكر لنا بعض التفاصيل التي تجعلنا نصفه معك بهذه الصّفة يا سيِّدي؟

الأستاذ: خذوا مثلاً، التعليمات التي أصدرها نابليون بعد إخماد ثورة القاهرة..

أمر مدفعيّة القلعة المعزَّزة القويّة، بأن تسدّد ضرباتها إلى الجامع الأزهر، وإلى الأحياء الشعبيّة المكتظّة بالسكان التي تحيط بالأزهر، والتي هي مركز الثورة، كحيّ الغورية مثلاً، وأصدر أمره إلى الجنرال بون بهدم الجامع وتدميره، وبأن تُرفع الحواجز والأبواب التي كانت تسدّ الشوارع، فانهالت قذائف المدفعية من الصباح حتى المساء، كما أمر نابليون الجنرال بون، بإبادة كلِّ من في الأزهر.

كان نابليون يلقي أوامره هذه وهو في ذورة الغضب والهيجان، وكان يأمر بالصرامة والقسوة والغلظة.

وبعد إخماد الثورة، أمر نابليون بقطع رؤوس جميع المساجين الذين أُسِروا ومعهم أسلحة، وبإلقاء جثثهم في نهر النيل، فيما بين (بولاق) التي ذاق أهلُها الأهوال منه؛ ومصر القديمة.

وكان نابليون يأمر بقطع رؤوس ثلاثين رجلاً في كل يوم، وأكثر هؤلاء من زعماء الأحياء الثائرة، ليكون درساً قاسياً لكلّ من تسوّل له نفسه بالثورة على الفرنسيين المحتلين.

كما نفّذ حكم الإعدام في ثمانين زعيماً من أعضاء لجنة الثورة.. وأعدم كثيراً من طلبة العلم والمشايخ.. أعدم ثلاثة عشر منهم في الأزهر، وهؤلاء كانوا قادة للجماهير الثائرة.

خالد: الوحش السفّاح!

الأستاذ: بل قتل أكثر من ثلاثين امرأة من بواسل النساء اللواتي قاومْنَ الاحتلالَ في القاهرة وحدَها، وأمر بإلقاء جثثهنّ الطاهرة في نهر النيل أيضاً.

خالد: هذا فعلُ الجبناء أمثال نابليون.

الأستاذ: بل إنه أمر بتوفير الذخيرة في عمليات القتل، باستخدام السنك والسيوف والسكاكين في قطع الرؤوس، وبقْر البطون، وبالطعن والذبح.

خالد: السفّاح الخسيس.

الأستاذ: وأمر نابليون بقتل الشاب الشيخ يوسف المصيلحي الأزهريّ، وقتل العمدة الشهير الشيخ سليمان الجوسقيّ شيخ طائفة العميان بمصر.

سليمان: هل كان الشيخ سليمان الجوسقيّ أعمى؟

الأستاذ: كان الجوسقيّ أعمى البصر، ولكنه نافذ البصيرة، استطاع تنظيم العميان في القطر المصري، وجعل منهم قوة تُخشى صَوْلتُها في القاهرة والمدن والأرياف، حتى صار بفضل هذا التنظيم المرعب، من أعيان الناس المشار إليهم في المجالس، تُخشى سطوتُه، وتُسمع كلمته.. أمر نابليون بذبحه في سجن القلعة، ولا يُعرف له قبر.

خالد: أعوذ بالله من هذا السفّاح الخسيس.

الأستاذ: والأنكى من ذلك، أنه استصدر باسم العلماء بيانات ضدّ الثورة، تحضّ على السكينة والهدوء، ومَهَرَها بتوقيعاتهم وأختامهم.

خالد: هذا أبشع من سفّاح.

الأستاذ: وعندما ذهب نابليون لفتح (يافا) في فلسطين، كان جيشه ينهب ويقتل العرب طوال الطريق، من العريش إلى عكا.. وبأمره.. تصوّروا.. نهبوا (غزّة) ثم فتحوا (يافا) بالأسلوب الذي فتح به الصليبيّون مدينة القدس.. قتلوا

ألفين من جنود الحامية الذين كانوا يعلنون التسليم. . قتلوا أهل (يافا) كالمجانين طوال مساء اليوم الذين اقتحموا فيه المدينة، وطوال اليوم التالي بنهاره وليله. . قتلوا الأطفال والنساء والشيوخ والرجال العزّل. . سلبوا ونهبوا وهتكوا أعراض بنات ما زلن في أحضان أمهاتهنّ الميتات، وشقّوا البطون.

صادق: نحن لم نعرف هذا في عصور الهمج.

الأستاذ: مع أن الفرنسيّين كانوا قد أعطوا الأمان لجنود الحامية، فنزلوا وسلّموا أسلحتهم، وجيء بهم أسرى إلى نابليون، وكانوا بضعة آلاف أسير، فاصفرَّ وجهُ نابليون، وقال ساخطاً في غضب، موبّخاً ضباطه وجنرالاته:

ــ ماذا تريدونني أن أفعل بهم؟

ما هذا الذي فعلتموه؟

ثم أمر بذبح ثلاثة آلاف من الأسرى العزّل الذين مُنحوا أماناً باسم الشرف الفرنسي والثورة الفرنسية.

صادق: أراد نابليون تأديب الحاميات الأخرى في المدن التي ينوي اكتساحها.

الأستاذ: وأمر نابليون بأخذ المغاربة إلى شاطىء البحر، وأمر كتيبتين برميهم بالرصاص، فرمى المغاربة بأنفسهم في البحر الذي هو الأمل الوحيد في النجاة، ولكنّ جنود الثورة الفرنسيّة لاحقوهم برصاصهم، والذي أسعفته معرفتُه بالسّباحة، لحقوا به في القوارب، حتى أبادوهم، واصطبغ البحر الأبيض بالحمرة القانية، وملأت جثثُهم سطحَ البحر.

خالد: أوباش. . أوغاد!

الأستاذ: وفي اليوم التالي، قتلوا ألفاً ومئتي مدفعي تركي، بعد أن جوّعوهم يومين أمام خيمة الجنرال نابليون بونابرت.

خالد: أوباش.

الأستاذ: أمرهم بقتلهم بالسِّنَكِ والحِراب، توفيراً للذخيرة.

خالد: أوباش.

الأستاذ: وكان بين الضحايا أطفالٌ كُثُرٌ تعلّقوا بآبائهم وهم يموتون.

خالد: أين غيرتك يا غيور؟!.

الأستاذ: لقد صبَّ الله عليهم ـ في اليوم الثاني من أيام المذبحة ـ الوباء والطاعون صبّاً سخيّاً. ومع ذلك لم يوفّروا أحداً التقَوْهُ من القتل.. قتلوا مقتلة عظيمة على شاطىء بحيرة (طبريا) حتى اصطبغت بالحمرة، وأخذ نابليون معه اثنين وثلاثين أسيراً سوريّاً، ثم أعدمهم في القلعة، بعد أن طاف بهم في شوارع القاهرة.

سليمان: لماذا هاجم نابليون مدن غزة ويافا وطبريّا؟

الأستاذ: في شباط ١٧٩٩ (رمضان ١٢١٣هـ) خرج نابليون من مصر ليدوّخ سورية بقوته التي لا تُقْهَر، وحاصر مدينة (عكا) ثلاثة أشهر، ولكنّ المقاومة العنيفة التي لقيها هناك، اضطرتْه وأرغمتْه على فكِّ الحصار عنها في الثلاثين من أيار ١٧٩٩ (ذي الحجة ١٣١٣) بعد أن فَقَد آلافاً من جيشه، وعشرات من قواده وعلمائه ومستشرقيه، وعلى رأسهم: المستشرق الداهية (فانتور) خليله ومستشاره في الشؤون الإسلاميّة، وكانت هزيمة نابليون في عكا هزيمة منكرة، رجع بعدها إلى القاهرة، يجرُّ أذيال الخيبة والفشل، وفي قلبه خوفٌ مدمّرٌ من العواقب التي تنتظره. وعَرَف ـ بذكائه ـ أنّ أمر الحملة قد انتهى إلى غير رجعة، وأحسَّ بما تغلي به القاهرة غلياناً سوف يفضي إلى الانفجار، فانتهز فرصة اضطراب الأمور في بلده (فرنسا) وتسلّل ليلاً إليها في الثاني والعشرين من آب ١٧٩٩ (ربيع الأول ١٢١٤هـ) وترك أمر الحملة لخليفته (كليبر) وقد كتم عنه أمر سفره، ورحل دون أن يلقاه.. لهذا غزا سورية، وفعل ما فعل بأهالي غزة ويافا وطبريا وعكّا.

خالد: الجبان.

سليمان: لكنْ.. لماذا كان يريد (عكا)؟

الأستاذ: كان نابليون يعتقد أنّ فتح عكا سيفتح له طريق دمشق، وكان يقدّر أنه سيفتح دمشق ثم حلب في الأول من أيار.

سليمان: متى كان حصار عكا أستاذ؟

الأستاذ: حاصر نابليون مدينة عكا في التاسع عشر من آذار ١٧٩٩ وفشل وفكّ الحصار عنها في الحادي والعشرين من أيار ١٧٩٩.

سليمان: يعني.. شهرين؟

الأستاذ: ويومين.. استمرَّ الحصار اثنين وستين يوماً، خسر الفرنسيون خسائر فادحة في الضباط والجنود. وبذلك قضتْ عكا على أحلام نابليون، ولو سقطت عكا، لزحف نابليون على سورية، ولأجبر الدولة العثمانيّة على الجلوس معه على مائدة المفاوضات والصُّلح، ولأجبرَ المفاوضين على الإذعان لشروطه، ثم إنه كان سيتمكّن من الزحف برّاً إلى الهند الإسلاميّة، أو إلى القسطنطينيّة أو استانبول عاصمة دولة الخلافة، ولكان أنشأ دولة شرقيّةً على غِرار الدول الأوروبيّة، أو دولةً أوروبيّة في قلب الشرق العربيّ الإسلامي.

سليمان: الحمد لله الذي قهره وأفشله، وإلاّ كانت دولة صليبيّة إلى جانب الكيان اليهوديّ الصهيوني الذي زرعوه في قلب أمّة العرب والمسلمين في فلسطين الأسيرة.

الأستاذ: لقد دفنتْ عكا أحلامَه إلى الأبد، وحطّمتْ أسوارُها جيشه وكبرياءه.

خالد: كيف؟

التفت الأستاذ نحو خالد، ثم قال:

ـ عكّا هزمتْ نابليون، وقضت على أطماعه في بلاد المسلمين، إذ كان لهزيمته المنكرة أمام عكا المقاتلة، أثرٌ عظيم في نفوس السوريّين والمصريّين، وفي نفس نابليون بالذات، وأستطيع أن أزعم أن كارثة أسطوله الذي تحطم في معركة (أبو قير) لم تؤثر في هيبته وعبقريّته الحربيّة، بمقدار ما أثّرتْ فيه هزيمتُه أمام عكا.

تحفّز خالد للكلام، ثم سأل:

ـ لماذا أستاذ؟ فالخسارة هي الخسارة.

ابتسم الأستاذ في ودّ ثم قال:

ـ لا يا خالد. . هناك فرقٌ كبير وكبير جداً.

ـ كيف؟

أجاب الأستاذ:

ـ لأن نابليون كان يتولّى الحصار بنفسه، وهو الذي قَهَر جيوشَ أوروبا، وفَتَحَ إيطاليا، وأملى شروطَه على النمسا، وها هو ذا الآن ينهزم ويندحر أمام أسوار عكا، ويقفل راجعاً إلى مصر، تاركاً تحت أسوارها عدداً لا يُحصى من القتلى والموتى بالطاعون، والجرحى والمرضى.

تساءل خالد:

ـ وكذلك كانت خسائره في (أبو قير)؟

قال الأستاذ:

ـ ولكنّه لم يكن يقود المعركة في (أبو قير). . كان جنرالاته الذين يقودونها. . أرأيت الفرق؟

وسأل سليمانُ عن عدد القتلى والجرحى الفرنسيّين في حصار عكا، فأجاب الأستاذ:

ـ لا يقلّ عدد القتلى عن ألفين ومئتين، وعدد الجرحى والمرضى أكثر من ألفين وخمس مئة، وهم من خيرة ضباطه وجنوده.

وسأل سليمان:

ـ هل تذكر لنا واحداً من ضباطه الهالكين يا أستاذ؟

أجاب الأستاذ:

ـ خذوا مثلاً مقتل الجنرال (كافريللي) رئيس فرقة الهندسة. وقد كان مقتله من أكبر النكبات التي حلّتْ بالجيش الفرنسي.

وسكت الأستاذ هنيهة كأنه يتذكر شيئاً ثم قال:

ـ وقد ذكرتُ لكم هلاك المستشرق الداهية، خليل نابليون ومستشاره، فهل تتذكرون اسمه؟

فأسرعتُ أقول:

ـ اسمه (فانتور).

فأسرع الأستاذ يقول:

ـ هذا المستشرق الخبيث (فانتور) أمضى أربعين سنةً يتجوّل في بلاد المسلمين، قبل أن يلتحق بالحملة الفرنسيّة الصّليبيّة، وكان يعرف اللغاتِ التي تتكلّم بها الشعوب الإسلامية، كاللغة العربيّة واللغة التركيّة، كما كان يعرف اللغاتِ الإيطاليّة والروميّةَ والفرنسيّة.

وسأل خالد الذي انفرجت أساريره لمقتل المستشرق والجنرال:

ـ والشعب المصري؟

أجاب الأستاذ الذي دبَّ النشاط فيه من جديد، وهو يرى فرح خالد:

ـ حاول نابليون خداعه بما نشر من أكاذيب لم يصدّقها أحد.

ـ مثل ماذا؟

أجاب الأستاذ الذي كان موسوعة متحرّكة متنقّلة في التاريخ:

ــ زعم نابليون في منشوراته، أنه محق وسحق الجّزار والي عكا الذي قهر نابليون، ومرّغ أنفه في الرَّغام، كما زعم نابليون أنه هدم عكا بالقنابل، وأنّ أهلها فرّوا إلى البحر، وأنّ الجزّار جريح، وأن جروحه خطيرة قد تؤدي به إلى الموت.

خالد: الكذّاب المخادع.

صادق: الجزّار عربـي أستاذ؟

الأستاذ: أحمد باشا الجزّار من البوسنة، وكان والياً على عكا.

صادق: إذن الفرنسيّون اليوم يثأرون من البوسنيّين انتقاماً وثأراً من الجزّار البوسني الذي حَطّم جيشهم وإمبراطورهم نابليون.

خالد: كلامك صحيح يا صادق، ولذلك نرى فرنسا تنحاز انحيازاً صارخاً إلى جانب الصّرب المتوحّشين، ضدّ المسلمين البوسنيين.

سليمان: وكذلك الدول الأوروبية الصليبيّة، كبريطانيا وروسيا وأمريكا وغيرها.

خالد: ملّة الكفر واحدة.

الأستاذ: وقد اضطرته هزيمته هذه إلى مغادرة مصر كما قلت لكم في الثاني والعشرين من آب ١٧٩٩.

خالد: والمشايخ؟ ما دور المشايخ الكبار في الأحداث يا أستاذ؟

الأستاذ: قلت لكم: المشايخ الكبار كانوا يوجّهون المشايخ الصغار، ويتستّرون على تحركاتهم، وكانوا يقومون بدور المقاومة السلبية، ويُفْتون الناس بعدم التعايش مع الفرنسيين الغزاة، فلا نشتري منهم ولا نبيعهم، ولا نتعامل مع منتوجاتهم، ونقاطع حفلاتهم وكتبهم ومسرحهم، إلى أن يأذن الله بالفرج، ولهذا قاطع الشعب الاحتفالات التي أمر بها نابليون، وشارك فيها، كالاحتفال بالمولد

النبويّ الشريف، ومولد سيّدنا الحسين، والاحتفال بوفاء النّيل، وقد لقي المشايخ الكبار كثيراً من الأهوال، ولم يكونوا بمنجاة من السجن والقتل والتعذيب والمصادرة والتنكيل.

صادق: هل تروي لنا حادثة من المقاومة السلبيّة للشعب يا سيّدي؟

الأستاذ: سأروي لكم حادثتينِ من المقاومةِ السَّلْبيةِ التي واجَهَ بها الشعبُ المصريُّ نابليونَ بونابرت.

ــ تفضَّلْ يا أستاذ.

قال الأستاذُ:

ــ أمّا الحادثةُ الأولى، فهي أنّ نابليونَ فيما كان عائداً من بيتِ الشيخِ الساداتِ، رأتْه الجماهيرُ المصريّةُ، فتَجَمَّعُوا حَوْلَه، وصاروا يتصايحون، وليس في أيديهم سلاحٌ، ولم تنطلقْ حَناجرُهم بشعاراتِ الاحتجاجِ على احتلالِه، وإنما اكْتَفَوْا بقراءةِ سورةِ (الفاتحةِ) بصوتٍ مسموعٍ، فارتجفَتْ لذلك أعصابُ نابليونَ، واضطّربَ، وولّى هارباً من الجماهير.

سأل سليمان:

ــ وما هي الحادثةُ الثانيةُ يا أستاذ؟ فقد كانتِ الحادثةُ الأولى في مُنْتَهى الطَّرافة.

ابتسمَ الأستاذُ ماجدٌ وقال:

ــ أرادَ نابليونُ التقرُّبَ من الشعب المصريِّ، بالتودُّد إلى علماءِ الأزهر، فزارَهم ذاتَ يوم، وقَدَّمَ لثلاثةٍ منهم هدايا..

كانتْ هَدايا نابليونَ عبارةً عن طَيْلَسَاناتٍ (أي أرواب) تَحْمِلُ الشَّارةَ الفَرَنْسِيّةَ، فرَفَضَها مشايخُ الأزهرِ، وقال له الشيخ الشَّرْقاويُّ في نَرْفَزَةٍ وانفعالٍ:

ـ أنا لا أقبلُ هديَّتَك، حتى لا يَضِيعَ قَدْري عندَ اللَّهِ وعندَ إخواني من العلماءِ والمسلمين.

وكذلك قال له الشيخُ الأمير.

قال خالدٌ:

ـ هذا موقفٌ عظيمٌ من هؤلاءِ العلماء.

وقال سليمانُ:

ـ بل هو درسٌ عظيمٌ لسائر المشايخ والعلماء والقادة، يجبُ أن يتعلَّمُوه ويتعلَّمُوا منه الكثيرَ، فلا يجوز قبول هدايا الطغاة والمستعمرين.

وعَلَّق الأستاذُ قائلاً:

ـ باركَ اللَّهُ فيكم يا أبنائي، فهكذا ينبغي أنْ تَفْهَموا، وهكذا ينبغي أن يكونَ الرجالُ..

خالد: كم قُتل من الفرنسيين في الثورة الأولى للقاهرة؟

الأستاذ: أكثر من مئتين، كان منهم جنرال وكولونيل وضبّاط ومهندسون وجنود.

خالد: ومن الشعب المصري؟

الأستاذ: حوالي أربعة آلاف.

سليمان: لكنْ.. لماذا كانوا يقتلون المهندسين وهم مدنيّون؟

الأستاذ: لم يكونوا مدنيين.. كانوا ضباطاً مقاتلين.. كانوا يتولون اقتلاع أبواب الدروب والحارات، ونَبْشَ القبور، وهَدْمَ البيوت، وتحصين القلاع التي يحتلّها الفرنسيّون، فالمهندسون الذين جاؤوا مع نابليون ضبّاط محاربون.

صادق: هل تذكر لنا حادثة نعتزّ بها يا سيِّدي في ثورة القاهرة هذه؟

الأستاذ: تصوّروا. . . كلّ الفرنسيين الذين أوَوْا ولجؤوا إلى بيوت الشعب المصري، لم يصابوا بأذى. .

خالد: كيف؟

الأستاذ: حمتْهم مروءة الشعب المصريّ. . آوَوْهم في بيوتهم، وقدّموا لهم الحماية والأمن والمؤونة والطعام، مع أنّ المجاعة كانت تهدّد القاهرة.

الجميع: الله أكبر. . الله أكبر. .

الأستاذ: روت كتب التاريخ أن امرأة عجوزاً أزالت جداراً كان بينها وبين بعض الجنود الفرنسيين الهاربين، وحمتْهم من الثوار.

وعندما طلب الثوّار من أحد العامّة أن يدلّهم على المكان الذي لجأ إليه بعض الجنود الهاربين، رفض الرجل أن يدلّهم على أماكنهم، لأنهم صاروا في ذمّته، مع أن ذلك الرجل، وتلك العجوز، قد يكونان قد فقدا ولداً أو أخاً أو حفيداً أو قريباً لهما أثناء الأحداث الدامية التي سالتْ فيها الدماء طوال أيام ٢١ و ٢٢ و ٢٣ من تشرين الأول، تلك الأيام الدامية التي قضتْ نهائياً على آمال نابليون في كسب قلوب الشعب.

الجميع: الله أكبر.

الأستاذ: لقد دمّر الفرنسيون وفظّعوا بوحشية، ونكّلوا بالشعب الأعزل بلا أدنى مسكة من خلق، ويكفي أن تعلموا أن الجامع الأزهر كان منيعاً على الطغاة على مدى الزمان، ولم يتطاول عليه أحد قبل نابليون، أما بعد نابليون فقد تطاول عليه كليبر والهمجيّ محمد علي باشا وغيره من المستغربين، فأهانوه وأذلّوا طلابه وشيوخه.

وسكت الأستاذ ماجد لحظة ثم تابع يقول:

ـ لقد دخل الأوباش الأزهر الشريف بخيولهم، وربطوها بقبلته، وعاثوا فساداً بالأروقة، وكسروا القناديل والسهّارات، وهشّموا خزائن الطلبة والمجاورين

والكَتَبَة، ونهبوا ما أعجبهم من أمتعة، وطرحوا الكتب والمصاحف على الأرض، وداسوها بنعالهم، وعرَّوْا كلَّ مَنْ رأوه، جرّدوهم من ثيابهم، ثم طردوهم من الأزهر عراة بلا ثياب تستر عوراتهم، وتردّ عنهم الحرَّ والبرد.

خالد: هذا عن الثورة الأولى للقاهرة، فماذا عن الثورة الثانية؟

الأستاذ: بدأها أهل (بولاق).. ثاروا وحملوا ما وصلتْ إليه أيديهم من البنادق والسيوف والرّماح والعصيّ والحجارة، واتّجهوا صوب قلعة قنطرة الليمون لاقتحامها، ولكنّ حامية القلعة ردّت هجومهم بمدافعها، وقتلوا من أهل (بولاق) أكثر من ثلاث مئة.

سليمان: يا لطيف.

خالد: وبقيّة الأحياء؟

الأستاذ: ثارتْ طبعاً، واتّجه الثوار بجموعهم إلى معسكر القيادة العامّة للجيش.

سليمان: كم كان عددهم أستاذ؟

الأستاذ: كانوا عشرة آلاف، فصدّهم الفرنسيّون بنيران مدافعهم وبنادقهم، فانضمّت إليهم النساء والأطفال، ثم هجموا ثانية على المعسكر، واستعملوا ثلاثة مدافع عثمانية كانت بلا ذخائر.

خالد: ما فائدتها إذن؟

الأستاذ: تصوّروا.. لقد استعاضوا عن القنابل بكُرات الموازين الحديديّة التي جلبوها من الدكاكين، واستخدموها كقنابل.

الجميع: الله أكبر.. الحاجة أمّ الاختراع.

الأستاذ: لكنّ الحامية الفرنسية المتحصّنة في المعسكر، تمكّنتْ من تشتيتهم.

خالد: وانتهت المعركة؟

الأستاذ: بل استمرّ القتال إلى اليوم التالي، وأخذت القِلاع تضرب المدينة بالمدافع، وتسقط قنابلها على الأحياء المأهولة بالسكان، مما أوقع الرعب في قلوب الناس، فهاجر كثير منهم، ولكنّ الثوار وقفوا لهم بالمرصاد، ومنعوهم من الهجرة، وأغلقوا في وجوههم باب النصر الذي كانوا يقصدونه، فانبعثت روح الحماسة والقتال في النفوس، وهاجموا بيت المحافظ الذي كان متَّهماً بإيذاء الأهالي، وحاكموه، وأقاموا عليه البيّنة ثم قتلوه.

خالد: ما اسم ذلك المحافظ الخائن أستاذ؟

الأستاذ: مصطفى آغا.

خالد: خيبة الله عليه.

الأستاذ: وبذل الأهالي ما في وُسْعهم لتأييد الثورة، وقاموا بما أدهش الفرنسيين.

خالد: مثل ماذا أستاذ؟

الأستاذ: أنشؤوا خلال أربع وعشرين ساعة، معملاً للبارود، ومعملاً لإصلاح الأسلحة والمدافع، ومعملاً لصنع القنابل وصبّ المدافع.

سليمان: من أين جاؤوا بالحديد؟

الأستاذ: جمعوا الحديد من المساجد والحوانيت، وتطوّع الصنّاع للعمل فيه، وقدّموا ما لديهم من الحديد والآلات والموازين، وأخذ الناس يجمعون القنابل التي كانت تتساقط من المدافع الفرنسية في الشوارع، ويستعملونها قذائف جديدة يلقونها على الفرنسيين، وأحضروا ما يحتاجون إليه من الأخشاب وفروع الأشجار والحديد، وجمعوا الحدّادين والنجّارين والسبّاكين وأرباب الصّنائع الذين يعرفون ذلك، فصار هذا كلّ يُصنع في بيت القاضي والخان الذي بجانبه، والرّحبة التي عند بيت القاضي من جهة المشهد الحسيني.

الجميع: الله أكبر.. الله أكبر..

صادق: معنى هذا أنّ أهل القاهرة قد قاموا بما لم يستطع أحدٌ القيام به من قبل.. صنعوا البارود والقنابل والمدافع..

الأستاذ: وفي زمن قياسيّ.

سليمان: والطعام؟

الأستاذ: تطوّع الأهالي لإمداد الثوار بالزّاد والأقوات.. قدّم كلٌّ إنسان ما يستطيعه.. بعضُهم قدَّم كلَّ ما يملك.. وأهل الأرياف يأتون بالسمن والعسل والجبن واللبن والخبز واللحم والغنم، كما كانوا يأتون بالتبن للخيل وللوقود.

صادق: الله أكبر.. ما أروع الوحدة الوطنيّة في مواجهة الغزاة!

خالد: وكليبر؟ لم نسمع باسم كليبر!

الأستاذ: جاء كليبر إلى القاهرة بعد سبعة أيام من المعارك.. جاء في السابع والعشرين من آذار، فرأى الخَرْقَ قد اتَّسع على الرّاقع، فأعمل عَقْلَه، وعمل على بثِّ الفرقة بين الثوار، كما سعى إلى تحصين القِلاع، وإقامة الاستحكامات وتحضير المدافع والمواد المحرقة لإحراق المدينة، وأعطى أوامره بضرب الأحياء السكنيّة بالمدافع، واتفق مع الأمير المملوك مراد بيك، وعيّنه حاكماً على الصعيد، وجعله سيفاً من سيوفه، وجلّاداً من جلّاديه.

خالد: الخبيث الخسيس، يقدّم مصلحته على مصلحة الأمة والشرف والدين.

الأستاذ: مراد بيك كما وصفْتَه يا خالد.. ضرب الثورة من الداخل، ولاحق الثوار، وقاتل العثمانيين الذين كانوا يقاتلون الفرنسيين، ومزّق شمل عشرة آلاف مقاتل من العربان وأهل الأرياف الذين كانوا يقاتلون مع العثمانيين.

خالد: والخبيث الآخر؟

الأستاذ: كليبر؟ آه من هذا الطاغية الحاقد.. لقد طوّق القاهرة شرقاً وأمر ضبّاطه أن يصوّبوا نيران مدافعهم نحو الأزهر المقاتل، كما أمرهم باقتحام المنازل، وإضرام النيران في المباني.

سليمان: والثوار؟

الأستاذ: اشتدّ القتال بين الفرنسيين وبين الثوّار حول المواقع التي كان الفرنسيّون يحتلّونها، وكانت الحرب سجالاً بينهم.. كان الثوار يحتلون الموقع، فيقوم الفرنسيّون بهجوم مضادّ، ويستعيدونه من الثوار، فيقوم الثوار بهجوم معاكس، ويستردّون الموقع، وهكذا دواليك.

خالد: وهل استمرّ الوضع طويلاً هكذا؟

الأستاذ: استمرّ القتال من الخامس من نيسان حتى اليوم العاشر منه، وتحمّل سكان القاهرة كثيراً من الشدائد والأهوال، نتيجة الضرب المتتابع، وما نجم عنه من سفك الدماء، وإزهاق الأرواح، وتخريب الدور على رؤوس ساكنيها، وانعدام الأقوات، وغلاء الأسعار، وندرة الطعام، حتى إنّهم لم يعودوا يستطيعون النوم في الليل أو في النهار، بعد أن حلَّ الخوف والقلق محلّ الطمأنينة والأمن، وبعد أن تغلّب الجهلاء على العقلاء، وتطاول السُّفهاء على الرؤساء، إلى أن انتهت المأساة بالتسليم، فاستولى الفرنسيون على الدكاكين، ونهبوا ما فيها من بضائع، وصادروا الدور وما فيها من أمتعة وأموال، ومن نساء وصبيان وبنات، واستولوا على مخازن الغِلال من حبوب وسكّر وأرز وقطن وكُتان، وعطور وأدهان، والذي وجدوه في بيته مختبئاً، ولم يحمل سلاحاً، ولم يقاتل، نهبوا بيته، وعرّوه من ثيابته، وتركوه حيّاً يرتجف من الخوف والعار، ولم يقتلوه، وصار هؤلاء الضّعفاء فقراء لا يملكون ما يستر عوراتهم.

سليمان: ما أنذل الفرنسيّين!!

خالد: بل قل: ما أحقدهم على هذه الأمة، وما أشدّ وحشيّتهم!.

الأستاذ: كلاكما نطق بالحقّ.. فقد أسرف الفرنسيّون في ارتكاب الجرائم والفظائع لإخماد الثورة، ولم يتركوا وسيلة خسيسة إلاّ استخدموها، كإضرام النار في الأحياء المكتظة بالسكان، وإرسالها على المدينة وأهلها موتاً أحمر، فأحدثت الحرائق دماراً مخيفاً في القاهرة، واحترقتْ أحياء كاملة بما وبمن فيها، وتهدّمتْ بيوت كانت عامرة بأهلها وقِيَمِها، ودُفنت تحت أنقاضها أُسَرٌ كاملة، حتى صار منظر المدينة مفزعاً، يملأ القلوب أسىً وحسرة..

ونفخ الأستاذ ماجد لهيباً من جوفه الذي كان يحترق وهو يروي عن الحرائق ثم قال:

ـ ماذا أقول؟ صارت المدينة كلُّها ـ ما عدا حارة النّصارى ـ تلالاً وخرائب. فصرخ خالد:

ـ كلُّ هذا بأمر كليبر؟

ـ الخبيث الخسيس الذي شفى غليلنا منه، البطل المقدام، والعُقاب الحلبيِّ الكاسر: سليمان الحلبيّ الذي سارع من حلب لنجدة أهل مصر، وتخليصهم من الطاغية كليبر الذي ظنّ أنه غدا قادراً على كلِّ شيء، وأنّ مصر دانت له، وصارت مُلْكاً له ورثه من أمّه وأبيه، أو من صاحبه ورئيسه الذي استخلفه على مصر، ليستعبد أهلها، ويفرض عليهم الإتاوات والغرامات والضرائب.. تصوّروا.. لقد ضرب على أهل القاهرة اثني عشر مليون ريال غَرَامات.. وصادر أملاك كبير التجار، المجاهد السيد أحمد المحروقي رحمه الله تعالى.

فصرخ خالد:

ـ تاجر ومجاهد؟ غير معقول!

قال الأستاذ ماجد بهدوء:

ــ نعمْ يا خالد، ومن كبار المجاهدين. . انظرْ إلى أصابعك، فليست كلُّها سواء. . وسكت الأستاذ لحظة ثم تابع يقول:

ــ فرضوا مئة وخمسين ألف ريال على الشيخ السادات، وخمسين ألف ريال على الشيخ مصطفى الصَّاوي، وخمسين ألف ريال على الشيخ محمد الجوهري، وعلى أخيه الشيخ فتوح الجوهري، وأمر كليبر بتوزيع ما بقي من الاثني عشر مليوناً على سكّان القاهرة.

خالد: الخسيس.

الأستاذ: واعتقل كليبر خمسةَ عشرَ رجلاً من كُبَراء القاهرة، ليكونوا رهائن لوفاء هذه الغرامات. .

الخلاصة. . أسرف كليبر ومن معه في إرهاق سكان القاهرة، وإذلالهم واعتقال الكثيرين منهم، لإكراهم على دفع نصيبهم من الغرامة. . وأمر كليبر بمداهمة البيوت وتفتيشها تفتيشاً مُذِلاًّ، بحجة البحث عن السلاح، ومشّطوا الأحياء، وأذلّوا من فيها، بحجة البحث عن المطلوبين من الثوار، وتفنّنوا في ضروب القهر والتنكيل، واشتدّ الضّيق بالناس مما لاقوه من المصائب والكوارث، حتى خرج كثير من الناس عن أموالهم، وباعوا أمتعتهم، ومات كثير منهم في السجون، وهاجر من استطاع الهجرة منهم فراراً من الظلم والاضطهاد.

وعاد خالد يسأل عن العلماء، وما أصابهم، فقال الأستاذ ماجد:

ــ كان الشيخ السادات هدفاً لأقسى أنواع الاضطهاد والانتقام، وقد خصّه كليبر بأكبر غرامة كما سمعتم، وعامله بقسوة لا نظير لها. . أمر باعتقاله أكثر من مرّة، وأمر بإهانته، وبمصادرة أمواله، واضطرّه إلى بيع أملاكه، من أجل الوفاء بالغرامة، وكانوا يجلدونه خمسَ عَشْرة جلدة في الصّباح، ومثلها في المساء،

واعتقلوا زوجته وابنه، وضربوهما أمامه، كما ضربوه أمامهما وزوجته العفيفة المصون تبكي وتصيح.

خالد: الأوغاد.

الأستاذ: واستمرت الحال هكذا، إلى أن تشفّع بها عدد من المشايخ، فنقلوها من سجن الشيخ زوجها، إلى منزل الشيخ سليمان الفيّومي.

خالد: أوباش، أنذال، حاقدون.

الأستاذ: وأمر كليبر بسجن أتباع الشيخ السادات، وأهانوهم، وضربوهم، وخاصة تلميذه الشيخ محمد السندوبي الذي ضربوه حتى رأى الموت أمامه.

سليمان: هل كان ضبّاط كليبر راضين عن تصرّفاته!

الأستاذ: بعض ضبّاطه لم يكونوا راضين عن تصرّفه تجاه الشيخ السادات، لأنهم كانوا يخشون عواقب ما يوقعونه عليه من إذلال وإهدار كرامة، وعدم مراعاة لسنّه ومكانته عند الناس.

وعندما رأى زميلي سليمان أستاذنا يسكت، بادره بقوله:

ــ ألا نعود إلى سيرة البطل سليمان الحلبيّ يا أستاذ؟

نظر الأستاذ في ساعته ثم قال:

ــ معك حقٌّ يا سليمان، فقد أسهبْنا في الحديث عن أحوال مصر إبّان الحملة الفرنسية عليها، وقد كنتُ متعمّداً هذا الإسهاب، لأسباب واعتبارات أتركها لذكائكم.. والآن.. هيّا بنا إلى سيرة البطل سليمان الحلبي.. سلوا ما شئتم عن هذا البطل الذي كان يكبركم بقليل، فهو عندما استشهد كان ابن أربعة وعشرين عاماً إلاّ قليلاً.

سألَ خالدٌ:

ــ هل كان هناك قادةٌ يوجّهون سليمانَ الحلبيَّ يا أستاذ؟

قال الأستاذ:

ــ لقد كان سليمانُ الحلبيُّ ــ يا أبنائي ــ شاباً ذكيّاً، وكان لتربيته البيتيةِ، ولتربيتِه في رِحَاب الجامع الأزهر، أثرٌ كبيرٌ في توجيهه الوِجْهةَ الصحيحةَ، وتنبيهِه إلى الواقع الأليم الذي تعيشُه أمتُه العربيةُ والإسلاميّةُ.

قال سليمانُ:

ــ وأنا أستطيعُ ــ يا أستاذي الكريمَ ــ أنْ أضيفَ مدرسةً ثالثةً تَعَلَّمَ منها سليمانُ الحلبيُّ الشيءَ الكثيرَ.

سألَ الأستاذُ في اهتمامٍ وفَرَح:

ــ وما هي هذه المدرسةُ الثالثةُ يا سليمان؟

أجابَ سليمانُ وحُمْرَةُ الحياءِ تَصْبُغُ وجهَه:

ــ أعتقدُ ــ يا أستاذُ ــ أنَّ سليمانَ استفادَ من الشعب..

فقاطعَه الأستاذُ في سرور وقال:

ــ عظيمٌ جداً يا سليمانُ.. فقد نبَّهْتَني إلى أمرٍ خطيرٍ نَسِيْتُه، فالشعبُ كان مدرسةً مُهِمَّة بالنسبة إلى سليمانَ الحلبيِّ.

سأل خالدٌ في شبهِ غَيْرَةٍ من صديقِه سليمانَ الذي انتبَه لِمَا لم يَنْتَبِهْ إليه الأستاذُ ماجد:

ــ هل لك ــ يا أُستاذُ ــ أنْ تَشْرَحَ لنا ذلك؟

قال الأستاذ:

ــ حُبّاً وكرامةً يا خالد..

في حلبَ كان سليمانُ الحلبيُّ الصبيُّ يستمعُ في المقاهي إلى ما يَرْويه شاعرُ الرَّبَابةِ عن البطلِ الشعبيِّ (عنترةَ)، وعن تَغْريبةِ (بَني هِلالٍ) وبطولةِ (الزِّيْر سالم)، فَتَمْتَلِىءُ نفسُه إعجاباً بالبُطولاتِ، ويَتَمنّى أنْ يكونَ بطلاً كهؤلاء الأبطال عندما يَكْبَرُ.

وعندما سافرَ إلى مِصْرَ، ورأى اضطرابَ المجتمعِ المصريِّ، ومقاومةَ الشعبِ المصريِّ للمَظَالمِ التي يُلْحِقُها به حُكّامُه المماليكُ، ثم مُقاومتَه للغَزْوِ الفرنسيِّ، وبُرُوزَ عَدَدٍ مِنَ الشخصيّات الشعبيّة والوطنيّة قادةً للشعب المصريِّ. . عندَها قَرَّرَ سليمانُ أنْ يكونَ له دَوْرٌ في المعركة، وأنْ يكونَ بطلاً كعنترة والقعقاع، فهو عربـيٌّ مسلمٌ من حلبَ، تَرَبَّـى على أنَّ العِزَّةَ لله ولرسوله وللمؤمنينَ، وأنّ اللَّهَ اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم بأنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ، وهو يرى تَعَجْرُفَ المحتلّينَ، واسْتِفْزازاتِهم، واضطهادَهم للنّاس، كما يرى كَذِبَهم وضَلالَهم وتَضْليلَهم، وفسادَهم وإفسادَهم. .

سأل خالدٌ:

ــ مِثْلُ ماذا يا أستاذ!

أجاب الأستاذ:

ــ لقد رأى مرةً امرأةً مصريّةً تستغيثُ وتَطْلُبُ النَّجْدةَ، بعدَ أنْ هَمَّ أحدُ الجنودِ الفرنسيينَ بالاعتداءِ عليها. .

ومرةً ثانيةً سَمِعَ صوتَ امرأةٍ مصريّةٍ تَصْرُخُ: وا إسلاماه، وكان يُمْسِكُ بها مجموعةٌ من الجنودِ الفرنسيين. .

ومرةً ثالثةً رأى رجلاً يَمْشي في السوقِ ويَسْتَنْفِرُ النّاسَ وهو يهتفُ: الله أكبر. . حيَّ على الجهاد. . قاتلوا أعداءَ اللَّهِ. .

هَتَفَ سليمانُ وخالدٌ معاً: اللَّهُ أكبر. . اللَّهُ أكبر. .

وتابعَ الأستاذُ حديثَه:

لقد رأى سليمانُ الحلبـيُّ وسَمِعَ كلَّ هذا ــ يا أبنائي ــ فأَثَّرَ في نفسه تأثيراً عظيماً.

سأل خالدٌ أستاذَه بفُضولٍ شديدٍ:

ـ ثُمَّ ماذا؟ . . ماذا فَعَلَ سليمانُ الحلبـيُّ بعد أنْ دَرَسَ في الأزهرِ الشريفِ ثلاثَ سنوات؟

أجاب الأستاذُ:

ـ عاد إلى حلبَ، ليزورَ أهلَه، ويطمئنَّ على أحوالِ بلدِه، فقد خَشِيَ سليمانُ أنْ يُلِمَّ بوطنِه مِثْلُ ما أَلَمَّ بمصرَ.

فعَلَّقَ الطالبُ سليمانُ قائلاً:

ـ إنّ سليمانَ الحلبيَّ ـ فيما يبدو لي يا سيِّدي ـ شابٌّ أَلْمَعِيٌّ، قَوِيُّ الهِمّةِ، وإلاَّ ما ذَهَبَ وعاد وقطعَ آلافَ الأميالِ في تلك الظروفِ الصعبة.

قال الأستاذُ:

ـ صَدَقْتَ يا خالدُ، لقد كان سليمانُ كما وَصَفْتَ، وإلاَّ ما استطاعَ أنْ يَحُجَّ مرتين، وأنْ يزورَ القُدْسَ الشريفَ وغَزَّةَ.

صاح سليمانُ:

ـ الله أكبرُ. . كم كان عُمُرُه يا أستاذُ حين سافرَ للدّراسةِ، وحَجَّ مرتينِ وزارَ القدسَ وغَزّة؟

قال الأستاذُ:

ـ لقد استُشْهِدَ سليمانُ الحلبـيُّ وهو ابنُ ثلاثٍ وعشرينَ سنةً ونيّفاً فتصوّروا واحسُبوا كم فعل الحلبـي في هذا العمر القصير.

صرخ سليمانُ:

ـ استُشْهِدَ؟ مَنِ المُجْرِمُ الذي قتَلَ سليمانَ الحلبـيَّ؟

وقال خالدٌ متعجّباً كأنه لم يسمع ما قاله الأستاذ عن عمره مرتين:

ـ استُشْهِدَ وهو ابنُ ثلاثٍ وعشرينَ سنةً ونيّف؟ كلّ هذا خلالَ ثلاثِ وعشرينَ سنة وبضعة أشهر؟

قال الأستاذُ:

ـ أجلْ يا أبنائي.. ولا تَعْجَبُوا لهذا، فالرِّجالُ العِظَامُ تَتّسعُ أعمارُهم القصيرةُ لجلائلِ الأعمالِ.

قال سليمانُ:

ـ لم تُجِبْني يا أستاذ.. مَنْ قَتَلَ سليمانِ الحلبيَّ؟

قال الأستاذُ ماجد:

ـ أثناءَ عودتِه إلى حلبَ، قابَلَ سليمانُ الحلبيُّ بعضَ قُوَّادِ الجيشِ العثمانيِّ، وتدارَسَ معهم أمْرَ الفِرَنْجَةِ الذين احتلُّوا مصرَ، ثم عاهدَهم سليمانُ على أنْ يَقْتُلَ الجنرالَ (كليبر) الذي خَلَفَ نابليونَ على حُكْمِ مصْرَ، بعدَ أنْ غادرَ نابليونُ بونابرت أرضَ مصْرَ، عائداً إلى فرنسا، بعد أن سَمعَ بمؤامرةٍ تُحاكُ ضِدَّه هناك.

قال خالدٌ مستزيداً أستاذَه من أمرِ سليمانَ الحلبيِّ:

ـ ثم ماذا يا أستاذ؟ هل استطاع سليمانُ الحلبيُّ قَتْلَ الجنرال..

ـ كليبر..

قال الأستاذ.. ثم أجاب تلميذه خالداً:

ـ أجلْ يا خالد.

فسأل خالد:

ـ كيف قَتَلَه يا أستاذ؟ هل كان معه مُسَدَّسٌ اغتالَه به من بعيد؟ أم ماذا؟

قال الأستاذ ماجد:

ـ سأَحْكي لكم قِصَّةَ اغتيالِ الجنرالِ كليبر ولكنْ بإيجاز..

غادرَ الشابُّ سليمانُ الحلبيُّ مدينةَ حلبَ إلى مدينةِ غَزَّةَ في فلسطينَ، والتقى علماءَها، وقد حَمَّلَه هؤلاءِ العلماءُ العديدَ من الرسائلِ إلى بعضِ علماءِ الأزهرِ،

يُوْصُوْنَهم فيها بهذا الشيخِ الحلبيِّ الشابِّ، ويطلُبون مساعدتَهم له، فهو يَسْتَأْهِلُ كُلَّ خيرٍ . .

حَمَلَ سليمانُ الحلبيُّ تلك الرسائلَ وقَصَد القاهرة، وأَسَرَّ إلى مَنْ وَثِقَ به من علماءِ الأزهرِ بما عَزَمَ عليه من قتل الجنرال كليبر (قائدِ الجيشِ الفرنسيِّ والحاكمِ العامِّ بمصرَ) ولَقِيَ من هؤلاء العلماءِ كلَّ تشجيعٍ ومساعدةٍ، ممَّا زادَه تصميماً على تنفيذ مهمَّته في أقصرِ وقت، إذ كان يراقبه ويتابعه من مكان لآخر، حتى ظَفِرَ به وهو يَتَمشّى معَ مُهَنْدِسٍ فَرَنسيٍّ في حديقة منزله بالأَزْبَكيّة، فأقبلَ نَحْوَه في هيئةِ مُتَسَوِّلٍ، وانحنى على يده اليُمْنى مُوْهِماً إياه بأنه يريدُ تَقْبيلَها، ثم قَبَض عليها بيده اليسرى بشدّة، وانهال عليه بخِنْجَرٍ كان يَحْمِلُه بيُمْناه ويُخْفيه تحتَ ثيابِه، وطَعَنَه عِدّة طَعَناتٍ، وشَقَّ بَطْنَه فهَوَى المجرمُ كليبرُ صريعاً يتخبَّط بدمائه، ثم لحق البطل سليمانُ المهندسَ الفرنسي مرافق كليبر، وطَعَنَه أيضاً، ثُمَّ فَرَّ البطلُ سليمانُ، واختبأَ تحتَ جدارٍ متهدّمٍ بجوارِ الأَزْبَكيّةِ.

صاح الصديقان: خالدٌ وسليمانُ بعدَما رأيا أستاذَهما قد تَوَقَّفَ عن الكلام، وكلٌّ منهما لا يكادُ يتلقطُ أنفاسَه:

ـ ثم ماذا يا أستاذ؟

ـ هل وشى به أحدُ المُخْبِرين؟

ـ هل كان في ذلك الزمانِ مُخْبِرون كما عندَنا؟

أجاب الأستاذُ في ألَمٍ:

ـ الأوباشُ موجودن في كلِّ زمانٍ ومكانٍ يا أبنائي . .

وقد انطلقَ الفَرَنسيُّون يفتِّشون عنه، ويَتَوَّعدون بقتلِ سائرِ أهلِ مصرَ إنْ لم يَعْثُروا عليه. وقد استطاعُوا العُثورَ عليه في اليومِ الثاني خَلْفَ الجدارِ.

سألَ سليمانُ في لَهْفَةٍ:

ـ وهل أعدموه فوراً يا أستاذ؟ هل أطلقوا عليه رصاصَهم الجَبان؟

قال الأستاذ في هدوءِ مَنْ يَحْمِلُ بُرْكاناً في صدرِه:

ـ لقد أقاموا له محكمةً عسكريّة فرنسية بالطبع، فقضت بإعدامِه صَلْباً على الخازوق، بعدَ أنْ تُحْرَقَ يدُه اليُمنى التي طَعَنَ بها جنرالَهم كليبر، ثُمَّ تُتْرَكُ جُثَّتُه طُعْمَةً للعُقْبانِ.

قال خالدٌ في أَلَمٍ:

ـ يا لها من وحشيةٍ.. يا لهم من وحوشٍ.. يُحْرِقون يدَه وهو حيٌّ؟

وسأل سليمانُ في حُرْقَةٍ:

ـ وهل نفَّذَ المُجْرِمون هذا الحُكْمَ الهَمَجيَّ يا أستاذ؟

قال الأستاذ:

ـ نَعَمْ يا أبنائي.. نَفَّذُوا فيه ذلك الحكم الهمجيَّ المتوحش في اليومِ السابعَ عشرَ من حزيرانَ عامَ ١٨٠٠م وعَلَّقُوا إلى جانبِه رؤوسَ ثلاثةٍ من علماءِ الأزهرِ، كان قد أفضى إليهم بعزمِه على قتلِ كليبر، ولم يُفْشُوا سِرَّه..

سأل خالد:

ـ ومَنْ هم هؤلاء الشهداءُ العِظامُ يا أستاذ؟

أجاب الأستاذ:

ـ إنهم الشيخُ عبدُ اللَّهِ الغزّي، والشيخُ مُحَمَّدُ الغزّي، والشيخُ أحمدُ الوالي رحمهم الله جميعاً، وأسكنَهم فَسِيحَ جنّاتِه.

فقال خالد وسليمان: آمين.

ثم سأل خالد:

ـ وهل دُفِنَتْ جُثَّتُه في القاهرةِ يا أستاذ؟

قال الأستاذ:

ـ لا يا خالدُ. فقد احتفظَ الفرنسيون بالهيكلِ العَظْميِّ من جسم سليمانَ

الحلبيِّ، ثمَّ نَقَلُوه إلى فرنسا، ووضعوه في مُتْحَفِ حديقةِ الحيواناتِ والنباتاتِ في باريسَ، كما حَفِظُوا جُمْجُمَتَه في غُرْفَةِ التشريحِ بكليةِ الطِبِّ في باريسَ. وما زالَ الخِنْجَرُ الذي طَعَنَ به كليبرَ محفوظاً في مدينةِ (كَاركاسون) في فرنسا.

نظر الأستاذ في ساعته، ثمّ هبَّ قائماً وهو يقول:

ـ لقد تأخرتُ عن موعدي يا أبنائي. . السلام عليكم ورحمة الله.

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته أيّها الأستاذ العالم بالتاريخ.

نظر بعضنا في بعض، كأنما كلُّ واحد يستأذن زميله في الانصراف، وكنتُ أشدَّهم حماسةً للانصراف، لأسجّل المعلومات القيّمة التي عرفناها من أستاذنا اليوم، عن البطل المغوار سليمان الحلبـي.

بعد أن صلّيتُ وتغدَّيت، أسرعتُ إلى غرفتي، وتمدّدت على سريري، ورحتُ أستذكر ما قاله الأستاذ، لأحكيه لأختي صادقة.

وفيما أنا كذلك، سمعتُ صوت أقدام، ففتحتُ عينيّ جيّداً، فرأيت شاباً في مقتبل العمر، ليس بالطويل ولا القصير، ولا السمين ولا النحيل، بل هو بين بين، ولمحتُ بريقَ عينيه الواسعتين، وقرأتُ الإرادة والتصميم فيهما، فسألتُه:

ـ من أنت؟ وكيف دخلت؟

فظهرت أختي صادقة من خلفه وقالت في لهجةٍ حاولتْ أن تكون خشنة:

ـ هذا عمّنا البطل الصنديد الذي خرج من حلب إلى القاهرة، من أقصى مدينة في شمال بلاد العرب، إلى أقصى عاصمة عربية في الجنوب، ليثأر للأزهر وعلماء الأزهر، وطلاّب الأزهر، وللشعب الذي يحتضن الأزهر، من الغزاة الذين أرادوا قَهْرَ مصر، وشعب مصر.

فهتفتْ:

ـ لا تتفوّهي بأي كلمة. . عَرَفْتُه. . إنه العُقَاب الكاسر: سليمان الحلبـي.

وهجمتُ عليه أعانقه، وأرحّب به، وهو يحاول تحاشي قبلاتي التي كانت تنهمر على الفضاء المحيط بوجهه الصّارم، وأقول له:

ـ أهلاً بالبطل الذي أرى فيه نموذج المجاهد المسلم الذي وَهَب نفسَه للقتال ضدّ الاستعمار الفرنسيّ الصّليبـيّ، مؤكداً وحدة المشاعر والقلوب المسلمة، بتنفيذه العمليّة الأولى في الشرق الإسلاميّ، والفريدة من نوعها، بضخامتها، وروعة هدفها، مع أقلِّ خسائر، فلم تكشف من المخططين لها، والدافعين إليها، ولا من التنظيم الشعبـيّ الذي أوقدَ نيرانَ الثورات المتعاقبة في سائر المدن والقرى المصريّة، وخاصّة في القاهرة، سوى خليّة واحدة هي خليّتُك أيُّها الحلبـيُّ البطل.

ثمّ قدّمتُ للرجل كرسياً ليستريح عليه، ولعلّ عضلات وجنتيه المتشنّجة تسترخي قليلاً، ثم قلت له:

ـ اجلسْ أيّها البطل، فقد آن للفارس أن يترجّل.

أحسستُ بخفّة حركة الرجل، وبحيويّته ونشاطه وهو يجلس، ثمّ وهو يعدّل جلسته، وبعد أن استقرّ به المقام قال في ابتسام آسِر:

ـ هاتِ ما عندك يا صديقي..

فقلت:

ـ صادق.. اسمي صادق، وأختي هذه صادقة.. اسمها صادقة.

فقال الشابّ الصّارم القسمات، البارز الوجنات، في مرح:

ـ عاشت الأسامي يا صادق ويا صادقة.

وابتسمنا لدُعابته، ثم قلت:

ـ لماذا نَدَبْتَ نفسَك لقتل الجنرال كليبر؟ ألم يكن في مصر من يقوم بهذه المهمّة؟

فتحرك سليمان فوق كرسيّه، كأنّه يعدّل من جلسته ثمّ أجاب:

ـ في مصر آلاف الشجعان، وآلاف المجاهدين الأبطال، وهذا ليس غريباً عندنا نحن المسلمين الذين تلقَّوْا تعاليم الإسلام من منابعها الأصيلة.. من الأزهر الشريف، ومن غيره من مساجد المسلمين، ومن علماء المسلمين.. الأبطال والشجعان كُثُرٌ في مصر وفي غير مصر من بلاد العرب والمسلمين، وأنا أردت أن أشارك الشعب المصريّ الذي عشت بين ظهرانيه ثلاث سنين، في محنته، وفي الدفاع عن أزهره الذي هو أزهر المسلمين جميعاً، وعن علمائه الذين هم علماء المسلمين جميعاً، فهل في هذا غرابة؟

وسكت الشيخ سليمان قليلاً فقالت صادقة:

ـ ألم تعلم أنّ سبعة آلاف فارس من حلب، نهدوا إلى مصر، بقيادة أحمد آغا حمّصة، وكان معهم اللواء الكبير؟ لقد توجّهوا إلى مصر، لإخراج الفرنسيين منها. ثم لحقهم إبراهيم باشا القطرغاسي ـ من عظماء الدّولة الحلبيّين ـ إلى مصر، لمحاربة الفرنسيّين، وخرج معه نقيب الأشراف السيد محمد قدسي أفندي، ومعه من الأشراف نحو أربعة آلاف رجل.

وقالتْ صادقة:

ـ وعندما عاد هؤلاء المجاهدون إلى حلب، وكانت قد عادت مصر إلى الدولة العثمانية، فرحتْ حلب، وأقامت الزينات سبعة أيام.

قال سليمان في ابتهاج:

ـ أرأيت؟

وتابعتْ صادقةُ تقول:

ـ وعندما عاد السيد محمد قدسي أفندي ومعه الأشراف إلى حلب، تزيّنتْ حلبُ لعودتهم، وأقامت الأفراحَ ابتهاجاً بقدومهم.

نظر إليّ سليمان الحلبيّ وقال في ابتسام:

ـ أرأيت؟

وتابعتْ صادقة تقول:

ـ وعندما حاصر نابليون مدينة عكا، خرجتْ حملة من المجاهدين من مدينة حماة، وساعدت في فكِّ الحصار عن عكا، ثم عادت تحمل العلمين اللذين قاتلت تحتهما، وقد حدّثني أبـي أنه شاهد هذين العلمين في غرفة الشيخ العالم الربّاني محمد الحامد في جامع السلطان بحماة، ثمّ نقلوهما إلى المتحف الوطني في حماة.

فقال سليمان الحلبـي:

ـ إذن؟!.

وقالت صادقة:

ـ وعندما عرف المجاهد الشيخ عز الدين القسّام ما يحاك من مؤامرات يهوديّة صليبيّة ضدّ فلسطين، غادر بلدته السورية (جبلة) إلى فلسطين، ومعه عددٌ من إخوانه المجاهدين، استقرّوا جميعاً في مدينة (حيفا) ومن هناك كانت انطلاقتهم لمقاتلة اليهود والإنكليز، وقد استُشهدوا جميعاً في جبال فلسطين.

فتمتم الشيخ سليمان:

ـ رحمهم الله جميعاً، وأسكنهم فسيح جنانه.

ودعوتُ لأولئك الشهداء الأبرار كما دعا الشيخ سليمان، ثم سألتُه:

ـ لماذا اخترتَ الجنرال كليبر بالذات؟

اعتدل الشيخ الحلبـيّ في جلسته من جديد، لأن حيويّته ما كانت تتركه يستقرّ على حال، ثم قال:

ـ لأنه صيد ثمين، فهو من أكفأ جنرالات فرنسا، وأكبر جنرالات الغزاة، فهو خليفة نابليون، وهو القائد العام لما أسموه (جيش الشرق) الذي جاءنا غازياً، ولأنّ حكومة الثورة الفرنسيّة اليهوديّة كانت تعتمد عليه، فهو كما قلت: صيد ثمين. وأجدادنا العرب قالوا: إذا ضربت فأوجعْ؛ وقتلُه موجع لفرنسا ولجيشها المحتل.. هذه واحدة.. هل تكفي سبباً لقتله، أم أعدّد لك الأسباب يا صادق؟

صادق: أرجو أن تعدّد لي أسباباً أخرى.

صادقة: ألا يكفي أنه قائد جيش الاحتلال يا صادق؟

الحلبي: دعيه يا صادقة.. أريد أن أكسب ثقة صادق، فهو شابٌّ ذكيٌّ ألمعي.

صادق: عفواً يا سيّدي.. ما ذكرْتَه وما ذكرتْه صادقة يكفي لإبادة الجيش الفرنسي برُمّته. فإذا أحببتَ أن تذكر أسباباً أخرى فلك الشكر، وإن أحببتَ أن ننتقل إلى موضوع آخر، فلك الشكر ولك القرار.

الحلبيّ: بل سأذكر لك الأسباب الوجيهة التي ملأت قلبي حقداً مقدّساً على هذا الضابط الذي أراد أن يستقلّ بمصر، ويجعلها تابعة لفرنسا.

صادق: وهذا سبب وجيهٌ ثانٍ يا سيِّدي.

الحلبي: والسببُ الثالث: حقدُه على الإسلام والمسلمين، وتخطيطه البعيد لحرف المصريّين عن عاداتهم وتقاليدهم، بأن يستبدلوا بها عادات وتقاليد فرنسيّة، لمسخ شخصيتهم، وبالتالي، هو يخطّط لإبعادهم عن دينهم وعقيدتهم.

صادق: هل هناك سبب رابع يا سيّدي؟

الحلبي: السبب الرابع يا صادق، هو أنّ كليبر مجرم كسيّده نابليون، ارتكب من الجرائم في الإسكندرية ورشيد والقاهرة وغيرها من المدن والقرى المصريَّة، ما لم يرتكبه سيّدُه السفاح بونابرت، وكانت جريمته في إخماد ثورة القاهرة الثانية لا تُنسى على مدى الزمان.

صادقة: ماذا فعل في القاهرة يا عمّي العزيز؟

صادق: وماذا فعل بالإسكندريّة يا شيخي المجاهد؟

الحلبـي: كليبر هو الذي هاجم الإسكندريّة من باب سدرة، وقاتل الأهالي المدافعين عن مدينتهم بوحشيّة، ولم يوقفه عن وحشيته سوى إصابته بجرح بليغ في جبهته منعه من متابعة القتال بنفسه.

صادقة: إذن كان يقاتل بنفسه؟

الحلبـي: طبعاً.. ألم أقل لكم إنه من أكفأ الضباط الفرنسيّين؟ ولذلك عيَّنه نابليون حاكماً على الإسكندرية، ولم يصحبه معه إلى القاهرة.

صادق: وفي القاهرة؟

الحلبـي: لو رأيتم القاهرة بعد ثورتها الثانية التي أخمدها بقسوة ووحشيّة هذا الوحش كليبر. لقد جعل أحياء القاهرة أكواماً من الفحم والحجارة المحروقة والتراب، بينما جعلت الغراماتُ التي فرضها على سكان القاهرة، أماكنَ الفرنسيين وقبورَ عساكرِهم جناتٍ تحيط بها الأشجار والأزهار. أحرق القاهرة حتى تفحّمتْ.. ولبستْ بيوتُ القاهرة ثيابَ الحِدَاد، وكانت الندّابات في كل بيت.. ففي كلّ بيت من بيوت القاهرة شهيد أو أكثر من شهيد.. لبس أهالي القاهرة ثياب الحِداد.

صادقة: أعوذ بالله من هذا الوحش الأوروبـي.

صادق: ما سمعنا من أسباب تكفي لتمزيق جسد كليبر قطعةً قطعة.

الحلبـي: وأكثر ما يغيظني: كبرياؤه وانتفاشه كالديك الهنديّ كما نقول عندنا في حلب.. كان كليبر متألِّهاً.. يعني يريد أن يجعل من نفسه إلٰهاً يعبده الناس ويركعون ويسجدون له من دون الله.

صادق: خسيء وخاب.

صادقة: أريد وصفاً موجزاً لما جرى في ثورة القاهرة الثانية.

الحلبـي: انفجرت الثورة الثانية في القاهرة في الثالث والعشرين من شهر شوّال سنة ١٢١٤هـ واستمرت حتى الرابع والعشرين من ذي القعدة، أي أنها امتدّتْ شهراً كاملاً، كان القتال فيها من بيت لبيت، وارتكب الفرنسيون خلالها أقطع ما يرتكبه قاطع طريق مجنون. . ارتكبوا من الفظائع والجرائم ما تشيب له الولدان، وتقشعرّ منه الأبدان. . أمر كليبر ضبّاطه بضرب القاهرة بالمدافع والحرّاقات، فخرّب الدور والقصور، والمساجد والحمّامات والزوايا والقِباب والأسوار، حتى بقي ذلك كله خراباً متّصلاً. . صار حيّ الأزبكية بقصوره وحدائقه أطلالاً، واشتعلت النيران بالمدينة كلّها.

صادقة: ثمّ ماذا عن أولئك الوحوش أبناء الثورة الفرنسيّة يا عمّي؟

الحلبي: في الرابع عشر من نيسان أمر كليبر بهجوم كبير على المدينة بالقنابل، فاشتعلت الحرائق، وصبَّ على حيّ بولاق حُممه، وقاتل الفرنسيون ـ في هذا الحيّ المجاهد الذي أبـى أن يستسلم ـ كالمجانين، حتى استولوا عليه، وكانت القتلى مطروحة في الأزقة والطرقات، وبعد أن أحرقوا الأبنية والدور والقصور، سَبَوْا عدداً من نساء الحيّ، ولم يراعوا حرمةً لضعيف أو مريض أو عاجز.

صادق: وهذا الدّمار ما تزال آثاره باقية حتى الآن، لتشهد على همجيّة الفرنسيّين المحتلّين، كما قال لنا أستاذ التاريخ الذي شهد هذا بعينه.

صادقة: ثمّ ماذا يا عمّي عن هذا السفّاح؟

الحلبـي: كليبر أذلَّ المشايخ وأهانهم، ورفع قَدْرَ النّصارى، حتى صار المشايخ يحتمون بهم، وبمراد بيك، وبزوجة مراد بيك.

صادقة: أليس مراد بيك من المماليك؟

الحلبـي: بلى.

صادقة: معنى هذا أنّ المماليك تعاونوا مع الفرنسيّين؟

الحلبـي: مـراد بيـك تصـالـح وتعـاون مـع الفـرنسييـن، ونكّـل بـالثّـوار المجاهدين.

صادق: مع أن نابليون زعم في منشوره الذي وجهه إلى الشعب المصريّ عند نزوله في الإسكندرية، أنه جاء ليخلّص الشعب المصريّ من حكم المماليك.

الحلبـي: هذا لأنّ لنابليون أكثر من وجه، وأكثر من قفا.. كان يخاطب المصريين بلسان، ويقابلهم بوجه، ويخاطب المماليك بلسان آخر، ويلقاهم بوجه آخر.

صادقة: إنّ ذا الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً.

الحلبـي: وفي عهد كليبر تطاول النّصارى الشُّوام على المسلمين المصريّين بالسبّ والضرب والإهانة، ونالوا منهم كلَّ ما يريدون، وأظهروا أحقادهم، ولم يتركوا للصُّلح مكاناً، وصرّحوا بأن عهد الإسلام والمسلمين الموحّدين في مصر قد انتهى وإلى الأبد..

صادقة: أهكذا يفعل الضيف بمضيفه؟ يا ويلهم ويا بؤسهم وشقاءهم وسواد وجوههم.

الحلبـيّ: من شدّة ما لقي سكان القاهرة منهم ومن الفرنسيين، هرب كثير منهم إلى الأرياف.

صادقة: يا حسرةُ على العباد.

الحلبـيّ: كان كليبر يسعى إلى تمزيق الوحدة الوطنيّة التي بلغت ذروتها في ثورة القاهرة هذه.. كان يعمل لإيقاد فتنة طائفية.

صادق: ولكنّ قتْلَك إياه، سحق المؤامرة، وأبقى لمصر وحدتها، وعزّز الوحدة العربيّة التي جاءت بك من حلب إلى القاهرة، لتقتل طاغيتها كليبر الذي حسب أنّ مصر قد دانتْ له بالطاعة، ولكنّه لم يهنأ بهذا الحلم أكثر من شهرين، وما كان يعلم، أن هناك صقراً كاسراً سوف يقضي عليه وعلى أحلامه هذه بطعنة خنجر في قلبه الأسود.

صادقة: متى كان هذا يا عمّي؟

الحلبـي: كان هذا في الحادي والعشرين من المحرم عام ١٢١٥هـ (١٤ من حزيران ١٨٠٠م).

صادقة: هل تحدّثنا عن هذا العمل البطوليّ يا عمّي؟

الحلبـي: كما تحبّون.. وسوف أوجز، فأنا لا أحبّ كثرة الكلام.

صادق: أنت تعمل، يا سيِّدي، بنصيحة الخليفة الراشد أبـي بكر الصّدّيق.

الجميع: رضي الله عنه.

صادق: فقد كان يوصي الولاة بألاّ يطيلوا في الكلام، لأنّ الكلام الكثير الطويل، يُنْسي آخرُه أوّلَه.

الحلبـي: رضي الله عنه وعن أصحاب رسول الله أجمعين.

ولبثَ الشيخ سليمان الحلبـيّ مليّاً يفكّر ويركّز ما يستذكر، ثم قال:

الحلبـي: أعدَدْتُ للعملية مع ثُلّة من إخواني المجاورين الشُّوام.. بقينا شهراً كاملاً نخطِّط لها، ونراقب كليبر مراقبة دقيقة، لأعرف شكله، وكيفيّة التسلل إلى قصره، والاختباء فيه إلى أن تحين الفرصة، والأسلوب المناسب لمواجهته وقتله، وتخليص الشعب المصريّ منه.

صادق: زعموا أنّهم رأوك في (الجيزة) تتّبع خطواته، وزعموا أنك كنتَ تسعى وتحاول الدخول إلى مقرّ كليبر، بحجة تقديم عريضة إليه، ولكنّ سكرتيره رفض أن يأذن لك بمقابلته.

الحلبي: هذا صحيح. . كنت أسعى للتعرّف إليه، ولأكسر وأدوس الهالة التي أحاط بها نفسه، قبل الإقدام على نقله إلى الجحيم.

صادق: وزعموا أنّهم رأوك صباح العمليّة البطوليّة تندسّ بين جماعة من الخدم، وظنّوك من العمال الذين يشتغلون في عمارة السراي، وأنّهم طردوك من الحديقة.

الحلبي: هذا صحيح. ولو لم يكن كليبر هو هدفي لفتكتُ ببعض الضبّاط.

صادقة: ألم يكن لدى الفرنسيّين جهاز استخبارات كما عندنا اليوم؟

الحلبي: بلى. كان عندهم، ولكنّي ـ ولا مؤاخذة ـ كنت أذكى منهم.

صادق: مادمتَ قد جئتَ من حلب إلى القاهرة فالأزهر من أجل الجهاد في سبيل الله، والقتال إلى جانب إخوانك المجاهدين المصريين ـ لا بدّ أن تكون ذكيّاً مُسَدَّداً في تصرّفاتك، تحيطك رعاية الله.

الحلبي: ثمّ توجيهُ مشايخي الكبار الذين لم يبخلوا عليّ بمشورة ولا برأي.

صادق: ولكنك زعمتَ في اعترافاتك، أنك لا تعرفهم، ولم تتردد على أيٍّ منهم.

الحلبي (مبتسماً): حتى عندما سألوني عن صلتي بالشيخ الشرقاوي، وهو شيخ جليل ومجاهد، قلت لهم: أنا حنفي، والشيخ الشرقاوي شافعي، ولذلك فأنا لا أزوره.

صادقة: وصدّقوك؟

الحلبي: لقد صدّقوني فيما هو أخطر من ذلك ولله الحمد.

صادقة: عفواً يا عمي. . ماذا يعمل أو ماذا كان يعمل والدك؟

الحلبي: والدي الحاج محمد أمين ـ رحمه الله ـ كان تاجراً، ولعلي اكتسبت الدهاء والمكر والذكاء منه، وهو يتعامل مع زبائنه.

صادقة: نعود إلى عمليّتك البطوليّة يا عمّي.

الحلبـي: نعود..

وقبل أن يشرع الشيخ سليمان في الكلام عن العمليّة، نفخ ما كان قد امتلأ به صدره، ثم قال:

ــ صباح يوم الحادث، وكان يوم سبت، ذهب كليبر إلى جزيرة الروضة، ليستعرض كتيبة الأروام التي شكّلها القبطان الرومي نيقولا بابا زوغلو، وصار قومنداناً لها.

فقاطعتْه صادقة بقولها:

ــ عفواً يا عمّي.. مَنْ هذا الرومي الذي تتحدّث عنه؟

أجاب الشيخ سليمان:

ــ كان هذا الخبيث خادماً عند الأمير المملوك مراد بيك.

علّقتْ صادقة:

ــ الطيور على أشكالها تقع.. خبيث لقي خبيثاً.. نعمْ يا عمّي.

تابع الشيخ سليمان كلامه، وكأنه لم يسمع تعليق صادقة:

ــ نيقولا الرومي هذا خدم المماليك إلى أن حلّتْ بهم الهزيمة أمام الفرنسيّين الغزاة في معركة الأهرام.. عندئذٍ ترك المماليك والتحق بالفرنسيين، يخدمهم، وينفّذ لهم أوامرهم ورغباتهم، وصار تحت تصرّفهم، وقد شارك مع الفرنسيين القساة في إخماد ثورة القاهرة، ثمّ عيّنوه قومنداناً على الكتيبة التي شكّلها من حثالة الناس، ورفّعوه إلى رتبة جنرال.

سألتْ صادقة عن عدد أفراد تلك الكتيبة المعادية لمصر والمصريّين، وللإسلام والمسلمين، فقال:

ــ ألفٌ وخمس مئة وَبَشٍ من الأوباش.

ثم قال في انفعال:

ـ في اختصار شديد: تتبّعتُ خطوات كليبر من مكان إلى مكان، حتى دخل قصره في الأزبكيّة.. واستطعت أن أفهم أن من عادة الجنرال أن يتمشّى في الحديقة بعد العصر من كلّ يوم، كما استطعتُ التسلل إلى الحديقة بشيء من المكر والذكاء، وكمنْتُ وراء بئر عليها ساقية، وسكّيني في يميني تستعدّ للحظة الحاسمة.

بعد ساعات من كموني، شاهدت كليبر يمشي مع آخر، علمتُ فيما بعد، أنه كبير المهندسين الفرنسيّين.. كانا يتحدّثان في إصلاح السراي، فخرجتُ عليهما، واقتربتُ من الجنرال وأنا في صورة متسوّل جاء لاستجدائه، أو التوسُّل إليه في حاجة، وانطلت الحيلة على الجنرال الذي دوّخ الشعب المصريّ وأذلّ علماءه وكبراءه، ودفعه بخلُه إلى أن يقول لي: (مافيش.. مافيش) ولكنّي لم أتراجع، بل تقدّمتُ نحوه بخطوات ثابتة، وقلب كالحديد، وأوهمتُه أنّ لي إليه حاجة لا بدّ من قضائها، فلمّا دنوتُ منه، مددْتُ إليه يدي اليسرى، فظنّ المخبول أنني أريد تقبيل يده، فمدّ إليّ يده، فقبضتُ عليها بيدي هذه، وعاجلتُه بطعنة قاتلة من خنجري، وبيدي اليمنى هذه، طعنته في صدره، فنَفَذَت الطعنة إلى قلبه الأسود، ثم والَيْتُ طعناتي.. أربع طعنات متواليات، شقّتْ صدره وبطنه، فسقط على الأرض وهو يصرخ ويستغيث، كما صرخ المهندس الذي كان معه، وصار يستغيث وهو يولّي هارباً، فلحقتُ به، وطَعنْتُه ستّ طعنات، وتركتُهما يتخبّطان بدمائهما، وهربت.

فصاحتْ صادقة:

ـ إلى أين؟

قال سليمان الذي كانت تصطكُّ أسنانه وكأنه في عزّ البرد:

ـ تخبّأت خلف حائط متهدّم، في انتظار اللحظة المناسبة للهرب.

صاحت صادقة:

ـ تابعْ يا سيِّدي أرجوك.

فتابع الشيخ سليمان قائلاً:

ـ سمع العسكر صياحهما، وجاؤوا مسرعين، فوجدوا كليبر مطروحاً على الأرض، والدّماء الزُّرْقُ تلوّثُ الأرضَ وتغطّيه، ويبدو أنه كان فيه بعض الرَّمق، ثمّ انتقل إلى الجحيم.. فضربوا طبولهم منذرين، وانطلقوا يبحثون عني، ويفتّشون كلَّ مكان في الحديقة، واجتمع رؤساؤهم، واستنفروا العساكر في القلاع والحصون والمعسكرات، وأمروا بتطويق القاهرة، وبتعمير المدافع والبنادق والحرّاقات والقنابل، وفهمتُ أنّهم يهدّدون أهل القاهرة، ويتوعّدونهم بالإبادة.

والتقط الشيخ سليمان بعض أنفاسه ثم تابع يقول:

ـ كنتُ حزيناً لما قد يصيبُ أهل القاهرة، بقدر ما كنتُ سعيداً بقتل العلجين الفرنسيين، وقد خفّف أحزاني، أني سأقع في أيديهم، وسيعرفون أنني شاميٌّ ولستُ مصريّاً، وندمتُ لأني دفنت خنجري في مكان ما من الحديقة، وتمنَّيت لو أبقيتُه معي، لعلّي أقتل به بعض الضبّاط الذين ألقاهم في الحديقة أو عند أبواب الحديقة.

ـ لماذا دفنتَه ولم تُبْقِه معك يا سيّدي؟

ـ لأن المخطَّط كان يقضي بذلك.. بأن أطعنه وأهرب، ولا أترك أيّ أثر للعمليّة.. ولكنّ الذي حدث، أن دماء (الجنرال) كانت غزيرة، فلوّثتْ يديّ وثيابي، وحاولت التخلّص من ثيابي الخارجيّة، وحاولتُ مَسْحَ يديّ بالجدار الذي اختبأت خلفه، فلم أستطع..

ـ ثم ماذا يا سيّدي؟

ـ ثم عثروا عليّ بعد ساعة من عمليّة القتل.. هربتُ أمام الضابطين اللذين

عثرا عليّ، وأمام الجنود الذين لحقوا بـي، لعلهم يطلقون نيران بنادقهم عليّ فأستشهد، ولكنّهم لم يفعلوا. . كانت الأوامر تقضي بإلقاء القبض عليّ حيّاً.

ــ هل كنت تخشى التعذيب؟

ــ نعمْ. . كنتُ أخاف من التعذيب الوحشيّ الذي سأتعرّض له، ولكنني كنتُ مصمّماً على الثبات مهما بلغتْ وحشيّته.

صادق: وهذا الذي حصل.

الحلبـي: ليس كما كنتُ مصمّماً. . انتابني الضّعف، وفكّرتُ في أقلِّ الخسائر الممكنة.

صادقة: كيف؟

الحلبـي: سأحكي لكم. .

أولاً: حمدتُ الله على أنّهم قبضوا عليّ، لعلّ دمي يخفّف بعض الشيء عن أهل مصر، لأنني لستُ مصرياً.

ثانياً: شكّلوا لي محكمة هي مهزلة، وقد أنكرتُ الحادثة في البداية، ثم اعترفتُ بها، لأنّ كلَّ شيء يُثْبت أني الفاعل، ولكنّي عبثت بها وبالمحقّقين، وأنكرتُ أيَّ صلة لي بالعثمانيين لأنني ابن عرب، ولا أستطيع اللقاء بأيٍّ منهم، فكيف بالصّدر الأعظم؟

ولكنّ هذا السؤال فتح أمامي أفقاً جديداً للمناورة، قرّرتُ استخدامه في حال المناورة للتغطية على من خطّط معي وأرشدني وساعدني من مشايخ الأزهر، وخاصةً الصِّغار منهم.

ولذلك. . عندما سألوني عن أصدقائي بمصر، أجبتهم بأنني لا أعرف أحداً في مصر، غير الطلاب المجاورين المقيمين في الأزهر، وليس لي صلة بغيرهم.

وعندما سألوني:

«هل قصدْتَ الجيزة في الصباح الباكر؟ وهل حُمْتَ حول قصر كليبر الكائن هناك؟».

أجبتهم: نعم.

قالوا: وماذا كنت تقصد من ذلك؟

قلت: كنت أبحث عن وظيفة كاتب عربي، ولكنْ لم يُقْسَمْ لي نصيب.

ثمّ سألوني:

«لماذا تتبّعتَ خُطَا الجنرال كليبر من الجيزة إلى الروضة إلى قشلاق الأرمن، إلى قصر الأزبكيّة؟ وقد شهد على ذلك ضباط الحرس الذين رأوك؟»

قلت لهم: كنت أريد أن أراه.

سألوني: «هل تحدّثتَ مع أحد في الأزهر، بشأن قتل كليبر؟» فنفيتُ ذلك.

وهكذا استمرّ التحقيق، حتى كلّفوا برطلمي الرومي بتعذيبي وانتزاع الاعترافات مني.

وكان برطلمي أقسى من وحش.. لقد صبّ أحقاده عليّ، وعذّبني تعذيباً لا تطيقه الجبال، عندئذ اعترفتُ على نفسي، وأفصحتُ عن شخصيّتي، ولعبْتُ لُعْبتي التي هداني تحقيقُهم الأوّلُ إليها..

ـ كيف؟

ـ قلت لهم: لقد حضرتُ من حلب إلى القاهرة من أجل قتل كليبر.

وعندما سألوني عن السبب والمحرّض، قلت وأنا أكاد أطير من الفرح:

ـ كان هذا بتحريض من ضابط عثماني اسمه أحمد آغا. طلبتُ منه تقديم مساعدة لوالدي بتسهيل أمور تجارته، وحمايته من الطامعين واللصوص، فاشترط

عليّ أن أقوم بقتل الجنرال كليبر الذي يحاول الاستقلال بمصر، وباقتطاعها من جسم الدولة العثمانية، وإلحاقها بالجمهورية الفرنسيّة الكافرة، فقبلتُ.. ثمّ سافرتُ من حلب إلى القدس ثم إلى غَزّة، من أجل التحضير لقتله، والتخطيط للهرب والعودة إلى حلب، بعد تنفيذ عمليّة القتل.

صادقة: وصدّقوك؟

الحلبي: طبعاً صدّقوني، لأنني ـ أولاً ـ أعترف بهذا بعد التعذيب الوحشيّ الذي تعرّضتُ له، حتى عاينْتُ الموت، وقد وعدتُهم بأنني سأعترف، لأنني ما عدتُ أطيق المزيد من العذاب، وخفتُ أن أنهار ولا أفي بالعهد الذي قطعتُه على نفسي، وهو أن أموت ولا أعترف.. هذا من جهة، ومن جهة ثانية، كنت قد حبكْتُ قصة الاعتراف حبكة مُحْكَمَة..

صادقة: كيف؟

الحلبي: مزجتُ الحقيقة بالوهم والخيال، فبلعوا الطُّعْمَ بما قدّمتُ من اعتراف كنت أظنّه لا قيمة له، ولن ولن يفضي إلى إزهاق أرواح.

صادقة: كيف؟

الحلبي: اعترفت بمجيئي إلى القاهرة في الرابع عشر من أيار سنة ١٨٠٠.

صادقة: ليس في هذا شيء.

الحلبي: ولكنّهم كانوا فرحين وأنا أفتح فمي، ليكتبوا اعترافاتي (الخطيرة).. اعترفت أنني نزلت عند الخطاط التركي مصطفى أفندي البروسة لي.

صادقة: من هذا الخطاط يا عمي؟

الحلبي: رجل طاعن في السنّ، عمره واحدٌ وثمانون سنة، وكان أستاذاً لي، يعلّمني قواعد الخطّ العربيّ.

صادقة: وهو تركي؟

الحلبـي: ولماذا تستغربين يا صادقة؟ أليس مسلماً؟ أليس من الواجب على كلّ مسلم أن يتعلم اللغة العربية، ليقرأ القرآن العربـي، ولتصحّ صلاته؟ ثم إن هناك كثيراً من الخطّاطين الذي يتقنون قواعد الخطّ العربـي، وهم غير عرب، ولكنّهم مسلمون، وخاصّة من الأتراك.

قلت لهم: نمتُ عنده في ليلة نزولي القاهرة، ولكنّي لم أفاتحه بشيء مما كنت أعتزم فعله.

صادقة: وليس في هذا الاعتراف شيء يدين الرجل.

الحلبـي: ومع ذلك استدعوه، وحقّقوا معه، وكانت أقواله مطابقة لأقوالي، فقد نفى أن أكون حدّثته عن قتل كليبر.

صادقة: وصدّقوه؟

الحلبـي: وكان طُعْماً لهم.. صدّقوه، وتأكّدوا من صدقي، خاصة بعد أن اعترفت بأنني نمت في الأزهر ثلاثين يوماً.

صادقة: وليس في هذا شيء أيضاً، فقد سبق لك أن درسْتَ في الأزهر ثلاث سنين.

الحلبـي: ومع ذلك، قرأت الفرح في عيونهم وهم يسمعون هذا الاعتراف الخطير، وهم يدوّنونه أيضاً.

صادقة: ثم ماذا؟

الحلبـي: ثمّ كان الثمن الباهظ الذي ما خطر لي على بال.

صادقة: ما هو؟

الحلبـي: قلت في نفسي: لا بدّ من الاعتراف على بعض من شاركوني في التخطيط والتحضير لقتل كليبر، على أن أخفّف عنهم جهدي.

صادقة: يعني؟

الحلبـي: يعني اعترفت على أربعة من الطلبة الشُّوام. . على الشيخ محمد الغزي، وعلى الشيخ عبد الله الغزي، وعلى الشيخ عبد القادر الغزي، وعلى الشيخ أحمد الوالي، بأنني أفضيتُ إليهم بالسرّ الذي حملني على المجيء من حلب إلى القاهرة، فلم يوافقوني، واتّهموني بالطيش والجنون، ونصحوني بالإقلاع عن عزمي هذا، فلم أسمع نصحهم، ولكني أوهمتهم بأنني أمزح معهم، فمن المستحيل أن يفكر شاب غريب بقتل القائد العام لجيش الشرق، الجنرال كليبر.

صادقة: ورطتَهم!.

الحلبـي: ما كان في إمكاني غير هذا، ثم إني برّأتُ ساحتَهم، وما كان يخطر لي ببال أن تحمّلهم المحكمة العسكرية التي شكّلها خليفة كليبر، الجنرال مينو من تسعة أعضاء. . أقول: ما خطر ببالي أن تحمّلهم تلك المحكمة أيّ مسؤولية، بعد الذي قلتُه عنهم.

صادق: موقفك سليم جداً يا سيِّدي، ومحكمة الأوباش هذه، تذكّرني بمحاكم التفتيش، وبالمحاكم العُرفيّة التي يشكّلها الطغاة في كلّ زمان ومكان.

الحلبـي: ثم إني أردت أن أقنعهم بأن اعترافاتي صادقة، لأصرف السوء عن معلّمي وأستاذي الشيخ مصطفى أفندي الخطّاط الذي كان من أكبر المحرّضين لي على قتل كليبر وأتباعه، وعن أستاذي الشيخ الشرقاوي شيخ الجامع الأزهر الذي زرتُه وفاتحتُه بنيّتي وعزمي، فرأيته يتميّز غيظاً من جرائم كليبر بحقّ الشعب عامة، وبحقّ الأزهر ومشايخه وطلّابه ومجاوريه خاصّة، وبحقّ الشيخ السادات بصورة أخصّ.

صادقة: هل أعدموهم؟

الحلبـي: برّؤوا الخطاط الشيخ مصطفى أفندي، وحكموا بالإعدام على ثلاثة ممن اعترفت عليهم، وكنت أظنّ أن اعترافي المحدود عليهم لن يكلّفهم قطع

رؤوسهم الطاهرة.. كنت أقدّر أنهم قد يتعرّضون للسبّ ولعشرات الكرابيج، ثم تنتهي مشكلتهم، أتلبّس أنا القضيّة..

صادق: على أيّ حال.. فزتَ أنت وهم بجنات عَدْن، بالفردوس الأعلى، وباء كليبر بالخزي والعار وهو في طريقه إلى الجحيم.

صادقة: هل اعترفوا؟

الحلبـي: لم يُفِدْهم إنكارُهم.. واجهوهم بـي وباعترافي فكذّبوني، ويا ليتهم اعترفوا بمثل ما اعترفتُ عليهم.. كان ينبغي أن نتّفق على هذا قبل ليلة التنفيذ، ولكنّ قضاء الله ماضٍ، وفيه حِكَمٌ لا نعلمها.

صادق: لعلّهم ــ لو بقوا على قيد الحياة ــ أن يبوحوا ببعض الأسرار التي تكشف القيادة التي كانت توجّههم، فتكون الكارثة.

الحلبـي: تحليلُك سليمٌ جداً يا صادق.. كيف غَرَبَتْ عن بالي؟ فالله رحيم والله حكيم، جَلَّتْ قُدْرَتُه وحكْمَتُه.

وسكت سليمان لحظة، عرك فيها عينيه، ليواري دمعات كانت تملأ مآقيهما، ثم قال:

ــ لقد أشفقْتُ عليهم لحظة، ولولا خشيتي مما هو أكبر منهم، لتراجعتُ عن اعترافي عليهم، وكذّبتُ نفسي، ثم صحوتُ وهتفتْ أعماقي:

لا تراعوا أيها الأبطال، فأنتم فداء لمصر وشعب مصر، ولأزهر الإسلام وعلماء الإسلام والمسلمين.

صادقة: قلتَ: إنهم أعدموا ثلاثة من زملائك المشايخ الصّغار، فهل برّؤوا ساحة الرابع؟

الحلبـي: لا لم يبرّئوه، بل تمكّن من الفرار، فأمروا بمصادرة أمواله.

صادقة: هل كانت أملاكه كثيرة؟

الحلبي: ما كان يملك أكثر مما أملك.. الثياب التي على ظهورنا.. هذه كلُّ ما نملك والحمد لله.

صادقة: ما اسم هذا البطل الذي تمكّن من الفرار؟

الحلبي: الشيخ عبد القادر الغزي.

صادقة: هل تعني أنه من مدينة غزة؟

الحلبي: طبعاً من غزة، كما أنني من حلب.

صادقة: إذن كان شبان غزة ثائرين، كما هم الآن!.

الحلبي: وكذلك مشايخها.. وقد فاتحتُ بعضهم، فشجّعوني، وأعطوني رسائل إلى بعض مشايخ الأزهر، وأوصوهم بي، وطلبوا منهم أن يساعدوني، وكذلك كان والحمد لله.

صادقة: والأتراك؟ لماذا ورّطتَ الدولة العثمانية باعترافك على واحد من ضبّاطها؟

فابتسم الشيخ سليمان ابتسامة عريضة، مع أنه كان يزوي ما بين عينيه، ثم قال:

ــ حتى أبعد التهمة عن العلماء والمشايخ الذين هم في قبضة الفرنسيين المحتلين، والفرنسيّون يشكّون بهم.. ثم إنني زعمت لهم أن أحمد آغا ضابط عثماني مسرَّح من الجيش، وهو يريدني أن أقتل كليبر، وأن أكتب له حجّة (أي وثيقة) بما اتفقنا عليه، لعلها تفيده في عودته إلى الجيش الذي سُرِّح منه تسريحاً تعسُّفياً.. إنّ الفرنسيين لن يتابعوا المسألة، أو فليذهبوا إلى حلب أو القدس أو القسطنطينيّة، ويلاحقوا من اعترفتُ عليهم من الأتراك.. وكما قيل: إذا كذبتَ فأبعدْ شهودك.

ــ حاشاك من الكذب يا سيِّدي.

وسألتْ صادقة:

ــ هل كنتَ واثقاً من صمود زملائك تحت التعذيب يا عمّي؟

فهزّ الشيخ سليمان رأسه ثم قال:

ــ كلّ الثّقة يا صادقة.. وقد عذّبوهم تعذيباً همجيّاً، حتى خشيتُ عليهم من الانهيار في لحظة من اللحظات، وخسىء المحقّقون.. خسىء برطلمي وجلّادوه، فقد كان أولئك المشايخ الشباب من طلبة الأزهر، أبطالاً في التضحية بأنفسهم، من أجل إنقاذ الأزهر وعلمائه وطلّابه.

وسكت الشيخ سليمان ليمسح عرقه الذي تحدّر من جبهته كالجُمان، فاهتبلتُ الفرصة وقلت:

ــ كانت اعترافاتكم يا سيِّدي في أضيق الحدود، وهي تؤكّد صلابة عزائمكم، وقوة تربيتكم التنظيمية... في البداية: كان الإنكار التام، ثمّ الاعتراف على النفس، وعندما اشتدّتْ وطأة التعذيب عليكم، وبلغتْ قسوتُه حدّاً لا يطيقه الجسم، كان اعترافكم في حدود ما يعرفه المحققون فعلاً، مع الحرص ــ في الوقت نفسه، وبرغم بشاعة التعذيب ــ على سلامة التنظيم، وسلامة القيادة السياسيّة والتنظيمية، وسلامة الشرف من أن تشينه اعترافات غير محدودة، لا تهدف إلّا إلى إطالة التحقيق، وحفظ الحياة.

وقالت صادقة في انفعال صادق:

ــ أرى في اعترافاتكم المضلِّلة هذه، لوناً من ألوان البطولة، ضربتم فيه المثل للآخرين، والاعتزاز بما حقّقتموه من حَصْر خسائر التنظيم، فأنتم، وقد وقعتم في أيدي جلاوزة الفرنسيين الهمج، قد انتهى دَوْرُكم، وباعترافاتكم المحدودة هذه، هدّأتم المحقّق، وضلّلتموه وصرفتموه ــ إلى حدٍّ ما ــ عن البحث والتفتيش عمّن وراءكم من القيادات.

صادق: وكان لإنكارك أن يكون هناك من يفكّر بقتل أحد من الفرنسيين غيرك، أثرٌ عظيم في مجريات التحقيق، وبطولة فذّة في التضحية بالنفس لإنقاذ القيادة والعاملين معها.

الحلبـي: لعلي نسيتُ أن أقول لكم: إنّ الشيخ الخطّاط مصطفى أفندي فقيه الكتّاب، كان قد أفتاني بجواز قتل كليبر، بل بوجوب قتله.

ونسيتُ أن أقول لكم: إنّ الفرنسيين كانوا مستميتين في معرفة علاقتي بالمشايخ الكبار، كالشيخ الشرقاوي والشيخ السادات وغيرهما.

صادق: ولكنك رفضتَ توسيع دائرة القضيّة، وحصرْتَها بشخصك الكريم.

الحلبـي (مبتسماً): لأنني حنفي وهم من الشافعيّة!.

ونسيتُ أن أقول لكم: إنّناجميعاً رفضنا الدفاع عن أنفسنا أمام المحكمة.

صادق: لعلّ هذا أول قرار مقاطعة عَرَفَتْه المحاكمات السياسيّة في الشرق.

صادقة: ولعلّ ضَرْبَتَكَ ــ أيُّها الحلبـيُّ المجاهد ــ قد مَحَتْ، أو خفّفتْ من وطأة العار الذي ألحقه نصارى الشام الذين توطّنوا في مصر، ثم تعاملوا مع المحتلّ الفرنسيّ، فأنت وسائر أفراد مجموعتك الشهيدة من الشام.

الحلبـي: ألا تريدان معرفة قرار المحكمة المهزلة؟

صادق: نعرفها يا سيِّدي، ولا أحبّ ولا أقوى على سماعها.

صادقة: مع أني فتاة ضعيفة رقيقة المشاعر، لستُ من رأي أخي صادق. . أنا أريد أن أسمعها، وسأحاول أن أقوى على سماعها، لأتأكّد من وحشيّة الضرب المتمدّن الذي يعجب به ويقلّده بعض المستغربين عندنا.

الحلبـي: أمّا بالنسبة إليّ، فقد اقترح ممثّل العدالة الفرنسيّة، أن ينزلوا بـي أقسى أنواع التعذيب. . أن تُحرق يدي اليمنى هذه التي طعنتْ الطاغية، وأن أموت على الخازوق، ثم يترك جسدي طعاماً للطيور الكواسر.

صادق: وقد استجابت المحكمة الفرنسية لاقتراح ممثّل العدالة الفرنسيّة، وقررت تنفيذ اقتراحه فوق تل العقارب، وبعد دفن الطاغية كليبر، وأمام كامل العسكر وأهل البلد الموجودين في المشهد، وعلى دقّات موسيقى الجيش الفرنسي، وتحت راية ثالوث الثورة الفرنسية الماسونية: (الحرية والإخاء والمساواة).

الحلبي: وأمّا بالنسبة إلى زملائي المشايخ الصغار، فحكمتْ بأن تُقطع رؤوسهم، وتوضع على نبابيت، وتُحرَق أجسامهم بالنار، في تل العقارب أيضاً.

صادقة: تل العقارب هذا يذكّرني بمرج العقارب الذي أبعد اليهود إليه أكثر من اربع مئة فلسطيني، وكلّهم من العلماء والمشايخ وأساتذة الجامعات وطلابها، ومن المهندسين والأطباء والشعراء والأدباء.. أبعدهم اليهود من ديارهم وأهليهم في غزة الثائرة وسواها، في جو بارد، وإلى مكان ليس فيه سوى العقارب، ثم صار اسمه (مرج الزهور) بأولئك الأبطال.

الحلبي (مبتسماً): إذن.. لم يختلف عليهم الجوّ.. فاليهود أشدُّ لدغاً من العقارب.

صادق: وأمروا بطباعة قرار تلك المحكمة باللغات: العربيّة والفرنسيّة والتركيّة.

صادقة: كلُّهم وحوش وحاقدون يا عمّي.. وإلاّ.. فأيُّ وحش يستطيع فعل ما فعله الفرنسيّون: أن تُحرق يدك بالجمر وأنت حيٌّ تنظر إليها وهي تُشوىٰ وتحترق.

صادق: لم يبق إلاّ أن يأمروك بأن تهتف ثلاثاً بالثورة القانونية التي أدخلها الجلاوزة الفرنسيون على الشرق الإسلامي (المتخلّف)!.

صادقة: هذه المحكمة تغطّي بالخزي والعار تاريخ أوروبا كلّها، وتفضح كلَّ أكاذيبها عن وحشية الشرق ودمويته، كمحاكم التفتيش تماماً.

صادق: هل عرفتَ يا سيّدي أنّ الجنود الفرنسيّين، عندما سمعوا بمقتل كليبر، قتلوا بسيوفهم وخناجرهم كلَّ من صادفوه من الرجال والنساء والأطفال في مصر؟

الحلبي: وقد أحزنني هذا كثيراً، ولكني لم أستغربه من أولئك الأوباش.

صادق: لا تحزن يا سيّدي، فقد كان صيدُك ثميناً، وكان الفرنسيون يقتلون من يريدون من المصريين بلا سبب، وما كانوا لينتظروك تقتل سيّدهم، ليقتلوا الأبرياء والضعفاء.

صادقة: لا تحزن يا عمّي البطل، فقد كنتَ ومن استشهد معك من المجاورين الشوام، في الأزهر رمزاً لوحدة هذه الأمة.

صادق: لقد كنت شجاعاً.. بل كنتَ تتمتع بحالة نادرة من الشجاعة والسيطرة على النفس، وإخضاع الجسد لإرادة الروح.. وقد كنتَ موضع إعجاب الأصدقاء والأعداء.. حتى بلغ الأمر بالجنرال (مينو) خليفة كليبر، أن يسمّي ابنه من زوجته المصريّة (سليمان) إعجاباً بك.

الحلبي (مقاطعاً): بل نفاقاً للشعب المصريّ.. مينو هو الذي شكّل المحكمة، ونفّذ قراراتها.

صادق: هذا صحيح، فقد عدّك الشعب المصريّ من أبطاله الخالدين.

الحلبي: الشعب المصريّ طيّب جداً، ويستأهل كلّ خير.

صادق: هل تحبّ يا سيّدي أن تسمع ما كتبه مؤرّخ الثورة الفرنسية (هيرولد) الذي شهد إعدامكم؟

الحلبي: ماذا كتب؟

صادق: «لا بدَّ أنّ هذا اليوم كان أروع يوم في حياة الرومي برطلمين، فقد بدأ بقطع رؤوس المشايخ الثلاثة، وكان الفحم أثناء ذلك، يُحمى في مَجْمَرَة. ولم

يشكُ سليمانُ ويده تُشْوىٰ على الجمر، ولكنْ حين انزلقتْ جمرةٌ إلى مِرْفقه، نبَّهَ برطلمينَ إلى أنّ الحكم عليه لم يذكر المرفق، بل اليد فقط. ورأى برطلمينُ في هذا مماحكةً من سليمان. وقال سليمان: إن برطلمين نصراني كلب، وأصرَّ على حقوقه، حتى أزيحت الجمرة عن مرفقه».

الحلبـي (مبتسماً): هذا صحيح..

صادق: وقال مؤرّخ الثورة الفرنسيّة عن ذلك الحكم الوحشيّ:

«ولمّا أتمَّ برطلمين القسم التمهيديّ من العملية، رفع الخازوق قائماً، وعليه سليمان، ثم غُرس في الأرض».

الحلبـي: ولن تستطيعوا تصوّر الآلام التي عانيتُها في عملية الإعدام تلك، فقد أنستني يدي المحروقة، فرجوت جندياً فرنسيّاً كان واقفاً بقربـي، أن يعطيني شربة ماء، وكاد العسكريُّ يناولني زمزميّته لأشرب منها، لولا برطلمين الحاقد الذي منعه من سقايتي.

صادقة: لماذا؟

صادق: لأنّ أقلَّ شربة من الماء كفيلة بقتله فوراً، وبذلك يتعطّل مجرى العدالة الفرنسيّة الحاقدة.

الحلبـي: فشخصتُ ببصري إلى السماء وتمتمت:

يا رب.

• • •

المصادر والمراجع

١ ــ عجائب الآثار في التراجم والأخبار : عبد الرحمن الجبرتي.

٢ ــ تاريخ الحركة القومية في مصر. : عبد الرحمن الرافعي.

٣ ــ رسالة في الطريق إلى ثقافتنا : محمود محمد شاكر.

٤ ــ ودخلت الخيل الأزهر : محمد جلال كشك.

٥ ــ الإسلام وحركات التحرر : محمد شوقي أبو خليل.

٦ ــ معارك العرب ضدّ الغزاة : د. محمد عمارة.

٧ ــ نهر الذهب في تاريخ حلب : كامل الغزي.

٨ ــ الدودة والثعبان (مسرحية) : علي أحمد باكثير.

٩ ــ سليمان الحلبي (مسرحية) : ألفريد فرج.

١٠ــ الحركة الفكرية في حلب : عائشة الدَّبّاغ.

١١ــ الأعلام : خير الدين الزركلي.

● ● ●